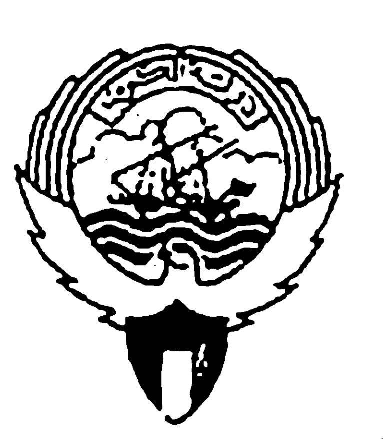


وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية
سلسلة الرسائل التراثية
- ٣ -

شرح
عقيدة أهل السنة والجماعة

(العقيدة الطحاوية لأبي جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي - ٣٢١ هـ)

تأليف
أكمل الدين محمد بن محمد البابرتي
٧١٢ - ٧٨٦ هـ

تحقيق
الدكتور عارف آيتكن

مراجعة
الدكتور عبد الستار أبو غدة

الطبعة الأولى
١٤٠٩ هـ = ١٩٨٩ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله وصحبه ومن اتبع هداه .

وبعد، فإن من الأهداف الأساسية لوزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بدولة الكويت إحياء التراث الإسلامي بشتى الصور التي تتحقق بها العناية بهذا التراث والانتفاع به علما وعملا . ومن الوسائل المعينة على ذلك نشره بصورة واضحة أمينة يتيسر بها الاطلاع على كنوزه بعد إدخال ما تقتضيه أصول الإخراج ومراعاة قواعد التحقيق، بحيث تغدو هذه المؤلفات مأنوسة لأهل العصر مهما تقادمت عهود تأليفها، ولاسيما كتب الفقه التي غرض مؤلفيها منها أن يعمل بما فيها ميدانيا، وأن يَزِن بها الناس تصرفات حياتهم وواقعهم .

ولما كان معظم ما نشر من المؤلفات الفقهية هو من الكتب الشاملة للأبواب الموضوعية المعروفة، ومما يختص بمذهب دون آخر، فقد كانت (الرسائل التراثية) مما يستحق الاهتمام بنشرها من المؤلفات الفقهية، والرسالة هي الكتاب المفرد لموضوع واحد من الأبواب البارزة أو المسائل الهامة بصورة تستوفي فيها متعلقاته . وهذه المؤلفات هي السوابق التاريخية للرسائل العلمية في عصرنا مما يبتغى بتأليفه تحصيل درجة دراسية أو ترقية تدريسية .

إن تأليف (الرسائل) التي تتناول بالبحث موضوعا واحدا أو مسائل متشابهة، وتدرسها من شتى الجوانب، وسيلة يتخذها الفقهاء النابهون لعلاج الأوضاع الاجتماعية وما فيها من المتغيرات التي لم تؤخذ بالاعتبار من قبل، وقد يعنون فيها بالوقائع المستجدة مما يسمى (حادثة الفتوى) أو (الواقعة) فيواجهونها بالنظر في النصوص مباشرة في ظل أصول أئمة المذاهب، وأحيانا بالاختيار والاستظهار وإعادة الترجيح على نحو مغاير لما سبق، بمراعاة المصالح المعتبرة شرعا وملاحظة مقاصد الشرع والحكم التشريعية .

هذا وإن التراث الإسلامي الذي خلفه علماء هذه الأمة، وبخاصة الفقهي

منـه، أصـدق شاهـد على شدة الالتـزام بشـرع الله في المجتمعـات الإسلامية المتعاقبة، وما كان يغمرها من نشاط فكري موصول بالواقع، لأن الفقه هو المرآة التي ترتسم فيهـا أوضـاع حياة الناس قويمة كانت أوسقيمة، ولذا يصحب نشر الـتراث تحصيـل نتائج معرفية يحرص عليها المعنيون بالأدب واللغة في تطورهما، والمتتبعـون لماضي الأنشطـة الاقتصـاديـة والاجتـماعية ومعالم التاريخ الحضاري والثقافي وجوانب الحياة الفكرية والعلمية للعصور الماضية.

على أن إعطـاء الأولـويـة لنـوع ما من المصنفـات لا يصرف عن نشر كل ما يثـري المعرفة من التراث الفقهي، بالرغم مما يتطلبه ذلك من مضاعفة الجهد، وتوافر الخبرة بالإخراج الفني والأهلية الفقهية معا.

لذا مضت الوزارة في خدمة التراث والعناية بنشره في ثلاثة اتجاهات:

- سلسلة (التراث الإسلامي)، وينشر فيها ما يتصل بالعلوم الشرعية.
- سلسلة (التراث الفقهي) وتعنى بالمؤلفات الفقهية المساعدة الواقعة بين الفقه وأصول الفقه.
- سلسلة (الرسائل التراثية) وهي هذه.

فضـلا عن سلسلة أخرى مخصصـة لنشـر الكتب الفكـريـة والـدراسـات الاسلامية الحديثة.

إن هذه الجهـود - والجهـد المـوصـول في انجـاز المـوسوعة الفقهية - تسهم بها الوزارة في أداء الأمانة تجاه تراث ضخم من المخطوطات في شتى العلوم، يقدره المختصـون بالملايـين، لابـد من تكـاتف الجهـود لإنقـاذه من الإهمال والفنـاء البطيء، لكي تشهـد الأمـة الإسـلامية ما في هذا التراث من منافع تعود عليها بالخير في دينها ودنياها.

والـوزارة تأمـل من المختصـين بهذه الأنشطة أن يتعاونوا معها بتقديم ما يتاح لهم القيام به من أعمال علمية في هذه المجالات، وأن يسـهموا بما يسند إليهم من مهامّ، تؤدي الى تيسـير الاطلاع على عيون التراث الإسلامي وتسهيل التفقه في الدين وتطبيقه وتحكيمه. والله ولي التوفيق.

وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحقيق

عندما تقدمت للحصول على درجة الدكتوراه في علم الكلام سنة ١٩٨٢ م . في تركيا اخترت موضوعا لأطروحتي هو عقيدة أبي جعفر الطحاوي ومكانتها في عقائد السلف ، وقد اشتملت على دراسة ونص وهو تحقيق العقيدة الطحاوية ، وانتهيت في دراستي هذه الى أن الطحاوي رحمه الله تعالى هو أول من دون عقيدة أهل السنة والجماعة على منهج السلف رضوان الله تعالى عليهم أجمعين .

ولعقيدة الطحاوي خصائص كثيرة من المنهج السلفي . ولذا فان كثيرا من العلماء ، قديما وحديثا قد شرحوا عقيدة الطحاوي منهم : اسماعيل بن ابراهيم بن أحمد الشيباني توفي سنة ٦٧٩ هـ / ١٣٣١ م ، وأحمد بن مسعود القَنَوي توفي سنة ٧٧١ هـ / ١٣٦٩ م . وأكمل الدين البابرتي محمد بن محمد توفي سنة ٧٨٦ هـ / ١٣٨٤ م . وعلي بن أبي العز توفي سنة ٧٩٢ هـ / ١٣٩٠ م ، وعبد الغني الميداني توفي سنة ١٢٩٨ هـ / ١٨٨١ م .

وهذا الشرح على عقيدة الطحاوي لاكمل الدين البابرتي هو شرح مختصر يبين أسرارها ويوضح مشكلاتها ويجلي معانيها . والشرح معتمد على

الأدلة من القرآن الكريم والأحاديث الشريفة النبوية والأدلة الأخرى من آثار الصحابة والتابعين رضوان الله تعالى عليهم أجمعين لكي ينقل الثقافة الاسلامية إلى الأجيال المسلمة في مجال الاعتقاد عارية عن آراء الفلاسفة المذمومة .

المنهج في التحقيق :

لم أتخذ أيّ نسخة مخطوطة (أصلا) في التحقيق بل قارنت بين النسخ الثلاث التي حصلت عليها ثم رجحت ما هو الأصح من الكلمات والعبارات عندي وأبقيتها في النص وأشرت إلى الأخرى في الهامش برموز النسخ . واشارة (ـــ) في الهامش تدل على أن الكلمات والجمل غير موجودة في النسخة . والألفاظ التي وضعت بين القوسين المعقوفين [ ] مزيدة لاستقامة الكلام وغير موجودة في المخطوطات . وجدير بالذكر أن العناوين للمواضيع كانت غير موجودة في النسخ المخطوطة بل أضيفت عند التحقيق ، بين قوسين معقوفين .

وللتعليق كما يبدو باعثان : أولهما الاشارة للألفاظ المختلفة بين النسخ ، والآخر لمراجع الآي[1] والأحاديث والرجال والتعليقات الضرورية .

وصف النسخ المخطوطة :

١ ـــ النسخة « س »

---

١ ـــ نظرا لكثرة الآيات وتخفيفا من التعليق المخصص لعزوها فقد وضع ذلك بين السطور ضمن معقوفين فيهما اسم السورة ورقم الآية . (المراجع)

أ ــ مكان النسخة : اسعد أفندي من المكتبة السليمانية باستانبول تحت رقم ١٢٥٩/٢٠

ب ــ تاريخ نسخها : غير معروف .

ج ــ الناسخ : غير معروف .

د ــ نوع الخط : رقعة .

هـ ــ عدد الأوراق : ٦٦

و ــ عدد السطور في الورقة : ١٧ سطرا .

٢ ــ النسخة « م »

أ ــ مكان النسخة : عموجة زادة من المكتبة السليمانية باستانبول تحت رقم ٣١٢/١

ب ــ تاريخ نسخها : غير معروف .

ج ــ الناسخ : مصطفى قرماني .

د ــ نوع الخط : نسخ .

هـ ــ عدد الأوراق : ٧٨

و ــ عدد السطور في الورقة : ١٥ سطرا .

ز ــ ومن أوصاف هذه النسخة أن الناسخ أو غيره قد قام بتصحيحها ، والكلمات كلها مشكولة .

٣ ــ النسخة « ل »

أ ــ مكان النسخة : لا له اسماعيل باشا من المكتبة السليمانية باستانبول تحت رقم ٦٨٩/٢

ب ــ تاريخ نسخها : ١١٤٧ هجرية .

ج ــ الناسخ : ملا علي بن شعبان دده .

د ـــ عدد الأوراق : ٨٠

هـ ـــ عدد السطور في الورقة : ١٤ سطرا .

و ـــ ومن أوصاف هذه النسخة أن غير واحد من العلماء قد قاموا بتصحيحها واستدركوا بعض الشروح بين السطور والهامش . وأهم الكلمات والعبارات مشكولة .

ترجمة البابرتي

شارح العقيدة الطحاوية

اسمه ونسبته :

اكمل الدين محمد بن محمد بن محمود الرومي البابرتي المصري الحنفي[1] . اجمعت أكثر المصادر على نسبته الى (الروم) و (البابرت) معا[2]. وهذا يدل على أنه ولد في بلاد الروم . وأما نسبته الى (بابرت)[3] أو (بابرتى)[4] فهي أمر مختلف فيه لكن المصادر التي تذكر نسبة اكمل الدين

---

١ ــ كشف الظنون ، ص ١٢٤٧ ، هدية العارفين ، ص ١٧١ .

٢ ــ شذرات الذهب ٢٩٣/٦ ، بغية الوعاة ص ١٠٣ ، والنجوم الزاهرة ٣٢/١١ الاعلام ٢٧١/٧ .

٣ ــ « بابرت » بكسر الباء الثانية ، قرية كبيرة ومدينة حسنة من نواحي ارزن الروم من نواحي ارمينية كما أخبرني رجل من أهلها فقيه (انظر : معجم البلدان ٤٤٤/١ ــ ٤٤٥) وقال صاحب هدية العارفين : البابرتي أعني البايبورتي من ملحقات ارضروم هدية العارفين ص (١٧). وفي دائرة المعارف الاسلامية ٢٤٥/٣ : بابرت عاصمة قضاء في ولاية ارضروم .

٤ ــ « البابرتي » بفتح الموحدتين بينهما الف وسكون الراء المهملة بعدها مثناة فوقية نسبة الى « بابرتي » بالقصر قرية بنواحي بغداد (انظر : الفوائد البهية ص ١٩٧ نقلا عن ولي الله الدهلوي والسيوطي) . « البابرتي » بفتح الباء المنقوطة بواحدة الالف بين البائين المفتوحتين وفي اخرها التاء الثالثة ، وهي قرية من اعمال دجيل بنواحي بغداد (انظر : اللباب في تهذيب الانساب ٩٩/١ ، وفي معجم البلدان ٤٤٤/١ : « بابرتى » بفتح الباء الثانية وسكون الراء والتاء فوقها نقطتان مقصورة ، قرية من اعمال دجيل ببغداد أو « بابرت » التابعة لارزن الروم ــ أرضروم ــ بتركيا .

الي (بابرتى) التي هي قرية بنواحي بغداد تنسبه أيضا الى الروم في نفس الوقت . وفي هذا اشكال كبير لأن بلاد الروم التي فيها قرية بابرت (بابيورت) اليوم هي غير نواحي بغداد . وهذا يؤكد صحة النسبة الى (بابرت) وعدم صحتها الى (بابرتى) التي تذكر بنواحي بغداد .

وأما نسبته « المصري » فبسبب أنه مات بمصر ودفن فيها .

مولده :

ولد اكمل الدين البابرتي سنة اثنتي عشرة وسبعمائة هـ[1] . وذكر صاحب الفوائد : أنه ولد سنة بضع وعشرة وسبعمائة[2] .

منزلته العلمية :

كان أكمل الدين علامة فاضلا ذا فنون ، وكان قوي النفس عظيم الهمة ، مهيبا عفيفا . عرض عليه القضاء مرارا فامتنع . كان أصحاب المناصب على بابه قائمين بأوامره مسرعين الى قضاء مآربه . وكان الظاهر[3] يبالغ في تعظيمه حتى أنه اذا اجتاز به لا يزال راكبا واقفا على باب الخانقاه الى أن يخرج فيركب معه ويتحدث معه في الطريق ، ولم يزل على ذلك الى أن مات[4] . وصحب شيخون واختص به وقرره شيخا بالخانقاه التي أنشأها وفوض أمورها إليه ، فباشرها أحسن مباشرة .

---

١ ــ هدية العارفين ص ١٧١ .

٢ ــ شذرات الذهب ٦/٢٩٣ ، بغية الوعاة ص ١٠٣ ، والفوائد ص ١٩٧ .

٣ ــ بغية الوعاة ص ١٠٣ ، مفتاح السعادة ٢/٢٦٩ ، النجوم الزاهرة ١١/٣٠٢ .

٤ ــ شذرات الذهب ٦/٢٩٣ ، بغية الوعاة ص ١٠٣ ، مفتاح السعادة ٢/٢٧٠ ، ٢٩٢ ، النجوم الزاهرة ١١/٣٠٢ ــ ٣٠٣ ، الأعلام ٧/٢٧١ .

موقفه في العلم :

اشتغل أكمل الدين بالعلم وحصَّل مباني العلوم في بلاده[١] . ثم رحل الى حلب وأخذ عن علمائها[٢] . فأنزله القاضي ناصر الدين بن العديم بمدرسة السادحية[٣] . فأقام بها مدة[٤] ثم قدم القاهرة بعد سنة أربعين وسبعمائة[٥] فأخذ عن أبي حيان وسمع من ابن عبد الهادي والدلاصي وغيرهم[٦] .

وأخذ الفقه من قوام الدين محمد بن محمد الكاكي . وأورد بعضهم في شيوخه شمس الدين محمد الأصفهاني . لكن نقل اللكنوي قول ابن حجر :

أما أنه (أي أكمل الدين) أخذ عن الأصفهاني ، فهو مدخول فيه . فإن شمس الدين بن محمد الأصفهاني شارح المحصول ، مات سنة ثمان وثمانين وستمائة ، كما ذكره السبكي في طبقات الشافعية . وكانت ولادة أكمل الدين سنة (بضع) عشرة وسبعمائة .

وتشير عبارات أكثر العلماء الى أن له درجة عالية في العلوم الاسلامية : فمما وصفوه به أنه : امام ، محقق ، مدقق ، متبحر ، حافظ ، ضابط ، لم تر الأعين في وقته مثله . كان بارعا في الحديث وعلومه ، ذا عناية باللغة العربية والأصول والنحو والصرف والمعاني والبيان ، وبرع وساد وأفتى ودرس

---

١ ــ يعني بلاد الروم .
٢ ــ الفوائد البهية ص ١٩٥ ــ ١٩٦ .
٣ ــ وفي مفتاح السعادة : الساذجية » .
٤ ــ شذرات الذهب ٢٩٣/٦ ، مفتاح السعادة ٢٦٩/٢ .
٥ ــ المصادر السابقة بعينها .
٦ ــ المصادر السابقة بعينها ، بغية الوعاة ص ١٠٣ .

وأفاد وصنف .[1]

واتصل سنده في الفقه عن شيخه قوام الدين الكاكي الى أبي يوسف بسلسلة الفقهاء العظام كما يلي :

أخذ الفقه عن قوام الدين محمد بن محمد الكاكي ، يرويه عن مولانا علاء الدين عبد العزيز البخاري صاحب كشف الأسرار ومولانا حسام الدين حسن السغناقي صاحب النهاية ، عن حافظ الدين الكبير محمد البخاري ، عن مولانا فخر الدين المايمرغي عن شمس الأئمة محمد بن عبد الستار الكردري ، عن صاحب الهداية علي بن أبي بكر ، عن أحمد بن عمر النسفي ، عن أبيه ، عن أبي اليسر محمد البزدوي ، عن أبي يعقوب يوسف السياري ، عن أبي اسحاق النوقدي ، عن الهند واني ، عن أبي القاسم الصفار ، عن نصير بن يحي ، عن محمد بن سماعة ، وهو شيخ الطحاوي ، عن أبي يوسف .[2]

تلاميذه :

تفقه على أكمل الدين جماعة منهم : سيد المحققين أبو الحسن السيد الشريف الجرجاني ، وشمس الدين محمد بن حمزة الفناري ، وبدر الدين محمد بن اسرائيل الشهير بابن قاضي سماوة صاحب التسهيل ، وغيرهم ، وأخذوا عنه مختلف الفنون الشرعية .[3]

---

١ ــ انظر المصادر السابقة وتاج التراجم ص ٦٦
٢ ــ العناية (في حاشية فتح القدير) ١/٢
٣ ــ الفوائد البهية ص ١٢٧ ؛ ١٩٦ ــ ١٩٧

مؤلفاته (ومكان مخطوطاتها) :[1]

له تصانيف عديدة من الكتب والرسائل في العلوم الاسلامية ، منها :

١ ـ شرح عقيدة الطحاوي (عموجة زادة ١/٢١٢ ، أسعد أفندي ١٢٥٩/٢، اسماعيل باشا ٦٨٩/٢) .

٢ ـ الارشاد في شرح الفقه الأكبر (أيا صوفيا ١٣٨٤ ، جامع محمد اغا ٧٢ ، سيرز ١١٠٢ ، حاجي محمود أفندي ١٣/١ . انظر أيضا : هدية العارفين ص ١٧١ ، والاعلام ٢٧١/٢) .

٣ ـ شرح وصية الامام أبي حنيفة (دو غملي بابا ٠٩٩/١ ، جلبي عبد الله أفندي ٢٠٧/١)

٤ ـ المقصد في الكلام (أيا صوفيا ١٣٨٤ ، بزتو باشا ٦٤٧/٢٥) .

٥ ـ شرح عمدة العقائد للنسفي (عموجة زاده ٣١٢/٢) .

٦ ـ حاشية على تجريد العقائد (هدية العارفين ١٧١/٢) .

٧ ـ عقيدة الطوسي (كشف الظنون ص ١١٥٨) .

٨ ـ رسالة في أهل الأهواء والبدع (لاله اسماعيل باشا ٨٠٦/١٨)

٩ ـ العناية شرح الهداية (جار الله ٢٢٤ ، عموجة زادة ٢٠٨)

١٠ ـ تحفة الأبرار في شرح مشارق الأنوار (مهرماه ٢١ ، عاشر أفندي ٦٢)

١١ ـ شرح المنار (قصيدة جي زاده ١٨٧ ، شهيد علي باشا ٦٥١ ، يني جامع ٢٣٢ ، جار الله ٥٣٧ ، كشف الظنون ص ١٨٢٤) .

١٢ ـ شرح تلخيص الجامع الكبير في الفروع (لاله لي ٩٦٤ ، الفوائد

---

١ ـ تنبيه : انظر لتصانيف اكمل الدين البابرتي أيضا : بروكلمان ن GAL ، ٤١١/١ ، ١٤٧ ، ٤٢٧ ، ٤٤٢ و G S , AL ، ٨٩/٢ .

البهية ص ١٩٦ ، الاعلام ٧/٢٧١) .

١٣ ــ مختصر الأضواء السراجية في شرح السراجية (أيا صوفيا ١٣٨٤ ، قاضي زادة محمد أفندي ١/٢٦١ ، شهيد علي باشا ١/١١٠٦) .

١٤ ــ التقرير على أصول البزدوي (داماد ابراهيم باشا ٤٥٩ ، رئيس الكتاب ٣٨٢ ، الفوائد البهية ١٩٥) .

١٥ ــ النقود والردود في شرح منتهى السول والأمل في الأصول والجدل (سليمانية ٣٧٥ ، بني جامع ٣٤٧ ، كشف الظنون ص ١٨٥٤) .

١٦ ــ تلخيص التلخيص (أسعد أفندي ٢٩٨٨ ، قليج علي باشا ٨٦٠) .

١٧ ــ شرح مختصر المنتهى لابن الحاجب (أسعد أفندي ٥٠١ ، الفوائد البهية ص ١٩٦ ، الاعلام ٧/١٧١) .

١٨ ــ حاشية على مختصر المنتهى (الحميدية ٤٢٦) .

١٩ ــ شرح الرسالة الاكملية (أيا صوفيا ١٣٨٤ ، داماد ابراهيم باشا ٧٣٥ ، شهيد علي باشا ٣/١٠٦) .

٢٠ ــ خلاصة الفتاوي (رستم باشا ١٤٦ ــ ١٧٧) .

٢١ ــ شرح ألفية ابن معطي (الفوائد البهية ص ١٩٥ ، هدية العارفين ص ١٧١) .

٢٢ ــ شرح تجريد الطوسي (الفوائد البهية ص ١٩٥) .

٢٣ ــ رسالة في عدم جواز رفع اليدين عند الركوع (أيا صوفيا ٤٨٠٠) .

٢٤ ــ شرح فرائض السجاوندي (كشف الظنون ص ١٢٤٧) .

٢٥ ــ رسالة في عدم جواز بيع الحيوان (أيا صوفيا ٤٨٠٠) .

٢٦ ــ مقالة في عدم وجوب تضمين المنفي بالأعيان (أيا صوفيا

٤٨٠٠) .

٢٧ ــ مقدمة في ترجيح مذهب أبي حنيفة (مكتبة جامع فاتح ٢٢٦٩/٤) .

٢٨ ــ رسالة في أن مذهب أبي حنيفة أقدم وارجح المذاهب السنية (شهيد علي باشا ٢٧٢٥/٤٧) .

٢٩ ــ رسالة تقوى اعتقاد ضعفة الحنفية في مذهب امامهم (رئيس الكتاب ١١٩١/٣) .

٣٠ ــ رسالة في ترجيح تقليد الامام الأعظم (ازميرلي اسماعيل حقي ٧١١/٣) .

٣١ ــ النكت الظريفة في ترجيح مذهب أبي حنيفة (كشف الظنون ص ١٩٧٧) .

٣٢ ــ مختصر الحكمة النبوية (لاله لي ٢٣٤٧/١ ، ٧٦٩) .

٣٣ ــ اعتراضات الجمع واجوبته (مكتبة جامع الفاتح ٢٢٦٩/٥) .

٣٤ ــ الانتصار للأئمة الأخيار (المصدر السابق) .

٣٥ ــ حكمة العوز (أيا صوفيا ١٣٨٤ ، شهيد علي باشا د/١٧١٧) .

٣٦ ــ شرح تلخيص المفتاح في المعاني والبيان (هدية العارفين ص ١٧١ ، الاعلام ٢٧١/٧) .

٣٧ ــ شرح منشأة النظر في علم الخلاف (كشف الظنون ص ١٨٦١) .

٣٨ ــ شرح الكشاف (جار الله ١٩٧) .

٣٩ ــ حاشية الكشاف (جور لولو علي باشا ٧٤/١ ، قرة جلبي زاده ٣٠ ، هدية العارفين ص ١٧١ ، ١٧١/٧ ، الفوائد البهية ص ١٩٥ ، ايضاح المكنون ٣٥٣/٢) .

وفاته :

توفي أكمل الدين البابرتي في ليلة الجمعة تاسع عشر رمضان سنة ست وثمانين وسبعمائة وحضر السلطان فمن دونه جنازته وصلى عليه عز الدين الرازي ، وأراد السلطان حمل نعشه فمنعه الأمراء وحمله الأمير أيتمش وأحمد بن ملبغا وسودون النائب ونحوهم . ودفن بالخانقاه المذكورة[1] ، على الرغم من هذا يقال ان مقبرة أكمل الدين البابرتي بقرية صغيرة من ملحق بابيورت « آشاغي قيوزي » التي تقع على بعد مائة كيلو متر من أرضروم بتركيا[2]

الرموز للنسخ المخطوطة للتحقيق :

س : أسعد أفندي .

ل : لاله اسماعيل باشا .

م : عموجة زادة .

---

١ ــ كشف الظنون ص ١٢٤٧ ، الفوائد البهية ص ١٩٦ ، وشذرات الذهب ٣٦٤/٦ بغية الوعاة ١٠٣ ، مفتاح السعادة ٢٧٠/٢

٢ ــ اكمل الدين البابرتي ، حياته وشخصيته العلمية ، للدكتور عصري جوبقجي ، ارضروم .

بســـم اللـــه الرحمـــن الرحيـــم

الحمدُ للّه الواجِبِ وجودُه وبقاؤه ، الواسع جوده وعطاؤه ، القديم بره واحسانه ، العميم طوله وامتنانه،المنزهِ في ذاته عن كل شبيه ومثال ، المتعالي في صفاته عن التغير والزوال ، والصلاة على رسوله الذي أرسله بالحق داعيا ، وللخلق هاديا ، محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أئمة الهدى ، ومصابيح الدجى .

وبعد ، فإن أجل العلوم وأعلاها ، وأوجبها على العاقل تحصيلًا وأولاها ، علم أصول الدين الذي يشمل على معرفة الله تعالى التي هي أصل كل علم ، ومنشأ كل سعادة ، لأجلها خلق الثقلان على ما فسَّر قولَه تعالى : ﴿وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون﴾ [الذاريات/٥٦] ليعرفوني ابن عباس ترجمانُ القران . وقد سماه(١) النبي صلى الله عليه وسلم رأس العلم حين سأله أعرابي وقال له : علمني غرائب العلم يا رسول الله . فقال صلى الله تعالى عليه وسلم : (ماذا عملت برأس العلم ؟) فقال الأعرابي : وما رأس العلم ؟ قال عليه الصلاة والسلام : (معرفة الله) . وذلك لأن شرف العلم بشرف المعلوم ، والله تعالى لما كان أجل وأعظم من كل موجود

كان العلم به أجلَّ وأهمها تحصيلا ، وأحقها تعظيما وتبجيلا ، لا مطمع في النجاة الا بحصوله ، ولا فوز بالدرجات الا في وصوله .

وقد تفرقت الفرق فيه لكن الفرقة الناجية منها التي أشار النبي صلى الله تعالى عليه وسلم إليها بقوله : (والذي نفس محمد بيده لتفترقن أمتي على ثلاث وسبعين فرقة ، واحدة في الجنة واثنتان وسبعون في النار) قيل :

يارسول الله من هم ؟ قال : (السنة والجماعة). قيل : وما السنة والجماعة ؟ قال : (ما أنا عليه وأصحابي).[٢] فينبغي للعاقل أن يلازم طريق أهل السنة والجماعة ، ويجانب طريق أهل الأهواء والبدعة . فإن أولى الطريقة التي كان عليها الصحابة والتابعون ومضى عليها الاسلاف الصالحون ، وقد تصدى لبيان مذهبهم كثير من أئمة الاسلام وفرسان علم الكلام فمنهم من أسهب وأطنب ، ومنهم من توسط ، ومنهم من انتخب .

ومن المختصرات التي نارت في حسنه مطالعه ، وحوت سحر البيان جوامعه وبدائعه ، ما صنفه البحر الزاخر الفاخر ، أبو جعفر الطحاوي رحمه الله ، فرغب الناس في قراءته وحفظه ، لكثرة فوائده وعذوبة لفظه ، فشرحته شرحا مختصرا يبين أسراره ، ويوضح مشكلاته ويكشف أستاره ، معتمدا ، على الله مفيض الخير والجود ، واهب وجود كل موجود .

ولما جاء في غاية الحسن والنضارة ، ونهاية اللطف والاشارة ، كنت متفكرا مدة من الزمان ، وبرهة من الأوان ، فيمن أجعله باسمه ، ليبقى طول الدهر برسمه ، ففرغت قلبي من مظان الرِّيب ، ووجهته تلقاء مدين الغيب ، فوقع من عالم القدس في سرى ، أخفى من دُرّي ، أن أتحف به مجلس من

طلع من برج السعادة بدرا يتلألأ نورا ، ويملأ القلوب بهجة وسرورا ، وأضحى غرة الجنان نزهة وضياء ، وغبطة السماء رفعة وسناء ، وظهرت عليه آثار البركة ، وقارنه السعد والتوفيق في الحركة ، ولاحت عليه لوائح السعادة ، وفاحت منه روائح السيادة ، وهو الأمير المعظم ، الكبير الأجل الأعظم ، مفخر الأمراء في العالمين ، كهف الفقراء والمساكين ، فريد العصر وزينة المصر[1] ، ولي الأيادي والنعم ، صاحب السيف والقلم ، الجامع بين الفضيلتين العلمية والعملية ، الحاوي السعادتين الدينية والدينوية ، المشرق من جبينه نور الهدى ، المرتفع بيمينه[2] أعلام التقى ، المخجلُ البحرَ الخِضمَّ بفضله ، والغادياتِ ببره وسخائه ، الأمير الجليل سيف الدين شيخ الملك الناصري صرغتمش الملكي الصالحي[3] ، أدام الله عِزَّه ، ووفَّر من الخيرات كنزه ، وحفظ من الغير مهجته ، وأدام سروره وبهجته ، فإنه متعين في هذا العصر لتربية العلماء ، مغتنٍ بالاحسان على الفضلاء . والحمدالله الذي جعل ألسنة الناس بنشر ثنائه منطلقة ، ورقاب العلماء بأعباء عطائه متطوقة ، فمن كان مشتملا على هذه الصفات والمناقب ، اشتمالَ السماء على النجوم والكواكب ، فجدير أن تشرف ديباجة الكتاب بألقابه ، وينتمي إلى جنابه ، حتى يبقى اسمه الشريف في الكتب والدفاتر بين الأنام ، على تعاقب الليالي والأيام ، ومر الدهور والأعوام ، ورأيت كُلًّا تنزع به همته إلى القرب بخدمته ، بتحفة تجود بها ذات يده ، وكانت حالي تقعدني عن إهداء تحفة تشاكل خزانته الكريمة ، أو تشبه ما فيها من النفائس اليتيمة ، تذكرت قول المتنبي :

---

١ ـ في ه : « مصر » وهو صحيح أيضا .

٢ ـ في س ، ل : « يمنة » .

٣ ـ صرغتمش : سيف الدين صرغتمش بن عبد الله الناصري ، توفي سنة ٧٥٩ هـ . (النجوم الزاهرة ، ٣٢٨/١٠) .

لا خيل عندك تهديها ولا مال
فليسعد النطق ان لم يسعد الحال

ولما رأيت العلم أفضل مرغوب فيه عنده وأجل ما يتحف به لديه آثرت أن أهديه الشرح المذكور ، على النمط المسطور ، والمرجو من كمال عاطفته التلقى بحسن القبول ، فإن ذلك غاية المأمول ، وان فسح في الأجل ، وسعدت ببلوغ الأمل ، جمعت له كتابا في الفقه شاملا لخلاصة ما في المطولات ، بالعبارات الواضحات . ومن الله التوفيق وبه هداية الطريق .

ولنرجع الى الشرح ، قال الطحاوى رحمه الله تعالى :

قوله : « هذا ذكر بيان عقيدة أهل السنة والجماعة على مذهب فقهاء الملة أبي حنيفة النعمان بن ثابت ، وأبي يوسف يعقوب بن ابراهيم الانصاري ، وابي عبدالله محمد بن الحسن الشيباني ،[1] وما يعتقدون من أصول الدين ويدينون به رب العالمين . »

أشار بقوله « هذا » إلى مشار إليه ذهني اذا كان تصنيف الخطبة قبل تصنيف بقية الكتاب ، كما قال في المنظومة :

---

١ ــ أبو حنيفة : الامام الأعظم والهمام الأقدم تاج الأئمة وسراج الأمة أبو حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي ، توفي سنة ١٥٠ هـ . (الجواهر المضية ، ٢/٤٥١) .
وأبو يوسف : يعقوب بن ابراهيم بن حبيب . أشهر أصحاب أبي حنيفة ولي القضاء في عهد الرشيد وألف كتاب الخراج . مات سنة ١٨٣ هـ .
(الفوائد البهية ص ، ٢٢٥)
ومحمد بن الحسن الشيباني ، هو صاحب أبي حنيفة ومدوّن مذهبه ، مات سنة ١٨٩ هـ . (الفوائد ، ص ١٦٣ ، الاعلام ، ٦/٣٠٩) .

هذا كتاب في الخلافيات[1] ....

وان كان بعده يكون اشارة إلى الموجود الخارجي .

« والعقيدة » فعيلة ، بمعنى مفعول أي المعقودة التي عقد عليها القلب وعزم بالقصد البليغ . يقال : اعتقد فلان كذا اذا ارتبط عليه القلب وعزم عزيمة محكمة .

وانما سمى علم أصول الدين«عقيدة»لتعلقة بعقد القلب دون العمل بالجوارح ، فكان المقصود منه نفس العلم ، بخلاف علم الفروع فإن المقصود منه العمل بالجوارح كالصلاة ونحوها .

و« أهل » الشيء ملازمه . و« السنة » في اللغة الطريقة ، وفي الشرع : اسم للطريق المسلوك في الدين .

وقد تقع على سنة النبي صلى الله عليه وسلم وغيره من الصحابة لقوله صلى الله تعالى عليه وسلم : (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي)[2] . ولكن المراد بها هاهنا الطريقة التي كان عليها النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأمِرَ بالدعاء إليها بقوله تعالى :﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني﴾ [يوسف /١٠٨] .

---

١ ــ المراد بالمنظومة « منظومة الخلافيات » للنسفي نجم الدين عمر بن محمد (توفي سنة ٥٣٧ هـ) وهذا الشطر هو صدر البيت الرابع منها ونصه :

هذا الكتاب في الخلافيات نُظم في العيون لا النكات (المراجع)

٢ ــ أبو داود (السنة/٦) و الترمذي (العلم/٦١) و ابن ماجه (المقدمة/٦)

والمراد « بالجماعة » الصحابة والتابعون لهم باحسان . واليه الاشارة بقوله عليه الصلاة والسلام : وهو الطريق الذي أنا عليه وأصحابي . وانما سميت هذه الطريقة طريقة أهل السنة والجماعة لأنها مخالفة لطريق أهل الهوى والبدعة .

و« المذهب » : هو موضع الذهاب . وهو الطريق الذي يسلك فيه .

وفي العرف صار عبارة عما تقرر عليه رأي كل مجتهد . يقال : « مذهب أبي حنيفة رحمه الله » لما تقرر عليه اعتقاده من الاحكام ، فكأنما يذهب إلى ذلك النمط ويتبعه من يقلده .

و« الفقهاء » : جمع فقيه مِنْ فَقُه بالضم ، اذا صار الفقه سجيةً له ، لا من فَقِه بالكسر فإنه يأتي لغير السجايا . قال الشاعر :

ولـــربما بخل الجواد ومـــا به
بخل ولكـن ذاك نحس الطـــالب

والفقه في اللغة الفهم الدقيق الذي يتوقف على القرينة[1] فانه لا يقال فقهت بأن السماء فوق الأرض .

وفي الاصطلاح : « الفقه : العلم بالأحكام الشرعية بأدلتها » . وقال فخر الاسلام[2] : « والعمل بها » ، حتى لا يصير نفس العلم مقصودا .

---

١ ـــ في م « القريحة »

٢ ـــ فخر الاسلام : علي بن محمد بن حسين بن عبد الكريم موسى بن عيسى بن مجاهد البزدوي ،أبو الحسن . مات سنة ٤٨٢ هـ . (اللكنوي ، الفوائد البهية ، ١٢٤ : كشف الظنون ، ١١٢ : معجم المؤلفين ، ١٩٢/٧)

وقال الإمام أبو حنيفة رحمه الله : الفقه معرفة النفس ما لها وما عليها ، اي ما ينتفع به من الثواب باتيان الطاعات وما يتضرر به من العقاب بإتيان المحارم والمحظورات .

وإنّما سمّى أبا حنيفة وصاحبيه بفقهاء « الملة » ، وهي : الدين الحنيف الذي بعث النبي صلى الله تعالى عليه وسلم به ، لأنهم أرفع العلماء شأنا وأقواهم حجة وبرهانا ، السابقون في تمهيد الأصول والفروع ، الجامعون بين الرأي الصحيح والمروى المسموع . وباعتبار أن الفقيه هو العالم بأحكام الشرع بدلائلها والعامل بها ، وهم جمعوا بينهما :

أما العلم : فقد ظهر آثاره في الشرق والغرب ، قال وكيع[1] : فُتح لأبي حنيفة في الفقه والكلام ما لم يفتح لغيره . قال الحسن[2] : سمعت النضر بن شميل[3] يقول : كان الناس نياما عن الفقه حتى أيقظهم أبو حنيفة رحمة الله بما فتقه وبينه ولخصه . وصح عن الشافعي رحمه الله انه قال : كل الناس عيال على أبي حنيفة في الفقه . قال أحمد بن صباح[4] : سمعت الشافعي يقول : قلت لمالك بن أنس : هل رأيت أبا حنيفة ؟ قال : نعم ، رأيت رجلا لو كلمك في هذه السارية أن يجعلها ذهبا لقام بحجته . وأما العمل فقال علي بن يزيد[5] : رأيت أبا حنيفة رضى الله عنه ختم القرآن في شهر

---

١ ــ وكيع : وكيع بن الجراح بن مليح الرؤاسي ، أبو سفيان الكوفي . مات في آخر سنة ست أو أول سنة سبع وتسعين بعد المائة . (ابن حجر ، تقريب التهذيب ، ٢/٣٣١)

٢ ــ الحسن : هو الحسن بن أبي الحسن البصري . مات سنة ١١٠ هـ . (تقريب التهذيب : ١/١٦٥)

٣ ــ النضر بن شميل ، المازني ، أبو الحسن ، النحوي . مات سنة ٢٠٤ هـ . (تقريب التهذيب ، ٢/٣١)

٤ ــ أحمد بن صباح : أحمد بن صباح النهشلي . أبو جعفر بن أبي سريج الرازي المقرئ . وقيل اسم أبيه عمر بغدادي . مات بعد سنة ٢٤٠ هـ . (تهذيب التهذيب ١/٤٤)

٥ ــ علي بن يزيد : علي بن يزيد بن سليم الصدائي ، الأكفاني . وهو من الطبقة التاسعة . (تقريب التهذيب ، ٢/٤٦)

رمضان ستين ختمة ، ختمة بالليل وختمة بالنهار . وقال حفص بن غياث[1] صلى أبو حنيفة صلاة الفجر بوضوء العشاء الآخرة أربعين سنة. ومناقبه في العلم والعمل مشهورة لا تحصى .

فلما تحقق عند أبي جعفر الطحاوي الذي هو إمام المحدثين أنهم جمعوا بين العلم والعمل ، وأن مذهبهم عمدة أهل السنة والجماعة ، سماهم فقهاء الملة واختاره لنفسه[2] وذلك لأن أبا حنيفة ولد في عصر الصحابة وروى عن بعضهم وتفقه في زمن التابعين وناظر بعضهم فكان منهم . وقد رضي الله عنهم ورضوا عنه على ما نطق به الكتاب العزيز وشهد النبي بخيرتهم حيث قال صلى الله تعالى عليه وسلم : (خير القرون الذي أنا فيه ثم الذين يلونهم) الحديث .

وقوله : « وما يعتقدونه من أصول الدين » . معنى الاعتقاد ، قد مضى . « وأصول الدين » مركب اضافي جعل علما لعِلْمٍ مخصوص :

فقيل في تعريفه من حيث كونُه عَلَماً : انه « علم يبحث فيه عن اسماء الله وصفاته وأفعاله وأحوال المخلوقين من الملائكة والأنبياء والأولياء والأئمة والمبدأ والمعاد على قانون الاسلام ، لا على أصول الحكماء ، تحصيلا لليقين في العقد الايماني ورفعا للشبهات » .

وقد يسمى أصول الدين بعلم الكلام إما لأن أظهر مسألة تكلموا فيها

---

١ ـ حفص بن غياث : ابن طلق بن معاوية النخعي ، أبو عمر الكوفي القاضي . مات سنة ١٩٤ أو ١٩٥ هـ .
(ابن حجر . تقريب التهذيب ١/٩ ، اللكنوي ، الفوائد : ٢٨)

٢ ـ أي اختار الطحاوي أبا حنيفة إماما . ومن المعروف أنه كان شافعيا مثل خاله المزني صاحب الامام الشافعي ثم تحول الى مذهب أبي حنيفة .(المراجع)

وتقاتلوا عليها هي مسألة الكلام فسمى النوع باسمها . وقيل : سمى كلاما لأن ظهور كمال الكلام إنما يكون ببيان الحقائق وابراز الدقائق وذلك لا يحصل الا بهذا العلم ، فجعل نفس هذا العلم كلاما مجازا للمبالغة . وقيل ان المنكرين للمباحث العقلية والأدلة البرهانية اذا سئلوا عن مسئلة تتعلق بصفات الله وأفعاله قالوا : نهينا عن الكلام في هذا ، فاشتهر هذا الاسم له فصار علما له بالغلبة . وأما من حيث كونه مضافاً « فالأصل » ما يبنى عليه غيره . و« الدين » وضع الهي سائق لذوى العقول إلى الخير وهو الاسلام . قال الله تعالى : ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾ [آل عمران /١٩] . وقال تعالى : ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسلامَ دِيناً﴾ [المائدة /٣] . وقد ورد الدين بمعنى : الانقياد ، والطاعة ، والجزاء والحساب ، فالمتدين هو المسلم المطيع ، المقر بالجزاء والحساب يوم المعاد ، وهو خير العباد .

قوله : « وما يدينون به رب العالمين » ، أي ما يتخذونه دينا ويطلبون به الجزاء من الله و « الرب » المالك . و « للعالمين » ، جمع عالم وهو اسم لذوى العلم من الملائكة والثقلين . وقيل ما عُلم به الخالق من الأجسام والأعراض . سمى به لكونه عَلَماً على ثبوت الصانع .

القول في التوحيد

قوله : « نقول في توحيد الله ، معتقدين بتوفيق الله : ان الله تعالى واحد لا شريك له ، ولا شيء مثله ، ولا شيء معجزه ، ولا اله غيره » . إنما ابتدأ بالتوحيد لأن أول خطاب يتوجه على المكلف هو الخطاب بإثباته وإليه بعثت الأنبياء وبه نزلت الكتب السماوية قال الله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء/٢٥] . وإنما قال « معتقدين » وهو حال عن الضمير في « نقول » تحقيقا للايمان ، لأن مجرد الاقرار باللسان بدون الاعتقاد بالجنان لا يكون ايمانا ، بل يكون ذلك نفاقا على ما أخبر الله تعالى عن حال المنافقين بقوله : ﴿قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾ [المائدة/٤١] وإنما قال « بتوفيق الله » اشارة الى قول اهل السنة والجماعة ان الوصول الى التوحيد بهداية الله على ما قال تعالى : ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ . لا بصنع العباد كما زعمت المعتزلة .

* * *

قوله : « إن الله واحد » هذا بيان للمقول أي نقول حالة الاعتقاد أن الله واحد . قيل (الواحد) و (الأحد) مترادفان ، وقد جاء في القرآن وصف الله بهما . قال الله تعالى : ﴿هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الزمر /٤] . وقال تعالى : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الاخلاص /١] .

وقيل يفيد كل واحد منهما ما لايفيده الآخر ، فان « الواحد » يستعمل لافادة الصفات ، و « الأحد » يرجع إلى الذات ، يقال : فلان واحد زمانه ، يعنون بذلك تفرده بصفات كمالية لا يشاركه فيها غيره ، ولهذا قيل :

إن الله تعالى أحد في ذاته ، وواحد في صفاته . قال الأزهري (١) : (الواحد) في صفة الله تعالى له معنيان : (أحدهما) : أنه واحد لا نظير له وليس كمثله شيء ، والعرب يقول فلان واحد قومه ، إذا لم يكن له نظير . « والمعنى الثاني » انه اله واحد ورب واحد ليس له في ألوهيته وربوبيته شريك .

وعبر بعض أصحابنا عن التوحيد فقال : هو نفي الشريك والقسيم والشبيه ، فالله تعالى واحد في أفعاله لا يشاركه أحد في إيجاد المصنوعات ،وواحد في ذاته لا قسيم له ولا تركيب فيه ، وواحد في صفاته لا يشبه الخلق فيها .

وقبل اقامة البرهان على التوحيد لا بد من ذكر اثباته ووجوب معرفته وكيفية الوصول إلى ذلك . فنقول : اختلف الناس في وجوب معرفة الله :

فذهبت الحشوية الذين يتعلقون بالظواهر إلى أن معرفة الله تعالى غير واجبة ، بل الواجب الاعتقاد الصحيح المستفاد بالظواهر ، وأنكروا على المستدلين بالدلائل العقلية .

---

١ ـــ الازهري : محمد بن أحمد بن الأزهر بن طلحة بن نوح بن الأزهر بن حاتم الأزهري ، الهروي ، الشافعي (أبو منصور) . أديب . لغوي ، توفي سنة ٣٨٠ هـ . (معجم المؤلفين : ٨/٢٤٠ ؛ ابن خلكان ، الوفيات ، ١/٦٣٥ ـــ ٦٣٦ . الذهبي ، سير النبلاء : ١٠/٢٢٦)

وذهب جمهور المسلمين إلى أن معرفة الله واجبة لكن اختلفوا في طريقها :

فذهب الصوفية وأصحاب الطريقة الى أن طريق معرفة الله انما هو الرياضة وتصفية الباطن ، ليستعد للواردات والشواهد والمعرفة التي يعجز العقل عن تعبيرها ، فعمدتهم على الذوق في ادراك المعارف .

وقالت طائفة : لا تحصل المعرفة الا بالالهام .

وقال أهل التعليم من الاسماعيلية : لا يحصل الا بتعليم الامام المعصوم فهم يوجبون نصب الامام ويحيلون خلو الزمان عن وجود امام معصوم يهدي الخلق إلى معرفة الله .

وقال جمهور المتكلمين : ان طريق معرفة الله انما هو بالنظر والاستدلال ، اذ العلم بوجوده ليس بضروري فلا بد له من دليل ، والدليل النقلي من الكتاب والسنة فرع على ثبوته وثبوت النبوة ، فلا يمكن الاستدلال به في الأصول فتعين الاستدلال بالدلائل العقلية التي ورد النقل أيضا بتصحيحها . فالطريق إلى إثباته تعالى إما إمكان العالَم ، أو حدوثه ، وإما مجموعهما . وكل ذلك إما في الجواهر أو في الأعراض :

فالاشارة الى الاستدلال بامكان الذوات في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ . [محمد/٣٨] لأن الممكن مفتقر في ذاته الى من يوجده والواجب غني عن غيره في وجوده .

والاشارة الى الاستدلال بالحدوث في قوله في قصة ابراهيم عليه السلام ﴿لا أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾ [الأنعام/٧٦] وهذه الطريقة أقرب الطرق الى أفهام الخلق، وذلك محصور في أمرين دلائل الأنفس ودلائل الآفاق المشار إليهما في قوله

١ ـــ في ت : للموارد .

تعالى : ﴿سَنُرِيهِم آياتِنا فِي الآفَاق وَفِي أَنْفُسِهِم حَتَّى يَتَبَيَّن لَهُم أَنَّهُ الحَق﴾ [فصلت /٥٣] .

أما دلائل الانفس فهي أن كل أحد يعلم بالضرورة أنه لم يكن موجودا ثم وجد ، وكل ما وجد بعد العدم لابد له من موجد وذلك الموجد ليس هو نفسه ولا الأبوان ولا سائر الخلق ، لأن عجزهم عن مثل هذا التركيب معلوم بالضرورة ، فلا بد من صانع قديم مخالف هذه الموجودات .

وأما دلائل الآفاق فلأن العالم يتغير ، ويدرك التغير بالمشاهدة من اختلاف الفصول والليل والنهار والطلوع والأفول والرعد والبرق والسحاب وغير ذلك ، وكل متغير حادث فلا بد من محدث قديم . إذ لو كان حادثا لاحتاج إلى محدث آخر فيدور أو يتسلسل وهما محالان[1] . وهذا الاستدلال هو طريقة الانبياء عليهم السلام والمتقدمين من العلماء والعقلاء . وذلك لأن آدم عليه السلام إنما أظهر الله حجته على فضله بأن أظهر علمه على الملائكة . وذلك محض الاستدلال وقال الله تعالى اخبارا عن نوح : ﴿يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُم إنْ كُنتُ على بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وآتاني رَحْمَةً مِن عِنْدَه فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُم أنلزمكموها وأنتُم لَها كارِهُون﴾ [هود /٢٨] واخبر عن قومه بقوله :

﴿قَالُوا يَا نُوح قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْت جِدالَنا﴾ [هود /٣٢] . ومعلوم ان تلك المجادلة ما كانت في الفروع بل في التوحيد والنبوة ونصرة الحق بالدلائل القطعية .

ولابراهيم عليه السلام مقامات :

---

١ ــ الدور هو توقف الشيء على ما يتوقف عليه . والتسلسل هو ترتيب أمور غير متناهية . (المترجم)

أولها : مع نفسه وهو قوله : ﴿فَلَمَّا جَن عَلَيْه اللَّيْل رَأى كَوْكَبا قَال : هَذا رَبي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلين﴾ [الانعام /٧٦] . وهذه هي طريقة المتكلمين في الاستدلال بتغيرها على حدوثها ، ثم إن الله تعالى مدحه على ذلك فقال : ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنا آتَيْناها إبْراهِيم عَلى قَوْمِهِ﴾ [الانعام /٨٣] .

وثانيها : حاله مع أبيه وهو قوله : ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُد ما لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْني عَنْكَ شيئا﴾ [الأنبياء/٥٨] .

وثالثها : مع قومه بالقول والفعل وهو قوله : ﴿فَجَعَلَهُم جُذَاذاإلا كَبيرا لَهُم لَعَلَّهُم إلَيْهِ يَرْجِعُون﴾ [الأنبياء /٥٨] .

ورابعها : حاله مع ملك زمانه نمرود وهو قوله : ﴿رَبِّي الَّذي يُحْيي وَيُميت﴾ [البقرة /٢٥٨] فاستدل على الربوبية بفعل يعجز عنه غيره من الإحياء والإماتة وإتيان الشمس من المشرق . وموسى عليه السلام عول في أكثر[١] الأمر على دلائل ابراهيم عليه السلام ، وذلك لأن الله تعالى حكى في سورة طه ﴿٥٠﴾ قال : ﴿فَمَنْ رَبُّكُما يَا مُوسى ؟ قَالَ رَبُّنا الَّذي أعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَه ثُمَّ هَدَى﴾وهذا بعينه هو الدليل الذي ذكره ابراهيم عليه السلام في قوله ﴿الَّذي خَلَقَني فَهُو يَهْدين﴾ [الشعراء /٧٨] . وقال في سورة الشعراء [٢٦] : ﴿رَبُّكم وَرَبُّ آبائِكُمُ الأولين﴾ وهذا هو الذي قال ابراهيم ﴿رَبِّيَ الَّذي يُحْيي وَيُميت﴾ [البقرة /٢٥٨] فلما لم يكتف فرعون وطالبه بشيء آخر قال موسى ﴿رَبُّ المَشْرِقِ والمَغْرِب﴾ . وهذا هو الذي قال ابراهيم : ﴿فَإنَّ اللَّه يَأْتي بالشَّمْسِ مِنَ المَشرِقِ فَأْتِ بِهَا مِن المَغْرِبِ﴾ [البقرة /٢٥٨] .

---

١ ــ في س : أكثر الأمر .

وأما نبينا صلى الله عليه وسلم فاشتغاله بالدلائل على التوحيد والنبوة والمعاد أكثر واظهر من أن يحتاج إلى الذكر ، فان القرآن مملوء منه .

وقد قال تعالى : ﴿أُدْعُ إلى سَبِيلِ رَبِّكَ بالحِكْمة والمَوعِظَة الحَسَنَة وجادِلْهُم بالَّتي هِي أحسَنُ﴾ [النحل /١٢٥] . ولا شك أن المراد بقوله :

«بالحكمة » اي البرهان والحجة ، فكانت الدعوة بالحجة والبرهان مأمورا بها . وقوله ﴿وَجادِلهُم بالَّتي هِي أحسَنُ﴾ ليس المراد منه المجادلة في الفروع لأنهم ينكرون أصل الشريعة ، فتعين أن المراد المجادلة في التوحيد والنبوة .

وقال تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجادِلُ في اللَّه بِغَيرِ عِلْمٍ﴾ [الحج /٨] يفهم منه أن الجدال بالعلم ليس بمذموم بل هو ممدوح والله تعالى أمرنا بالنظر والتدبر والتفكر فقال : ﴿قُلِ انْظُروا مَاذا في السَّماوَات والأَرْضِ﴾ [يونس /١٠١] ﴿أوَلَم يَنظُروا في مَلَكوتِ السَّماواتِ والأرْضِ﴾ [الاعراف /١٨٥] وذكر التفكر في معرض المدح فقال : ﴿إنَّ في خَلقِ السمَاواتِ والأرضِ واخْتِلافِ اللَّيلِ والنَّهارِ لآياتٍ لأولِي الألْباب﴾ [البقرة /١٩٠] ﴿إنَّ في ذلِكَ لعِبْرَة لأولِي الأبْصار﴾ [النور /٤٤] وذم الاعراض عن الآيات فقال :

﴿وكَأيِّن مِن آيَة في السَّمواتِ والأرْض يَمرُّونَ عَلَيْها وَهُم عَنْها مُعْرِضُون﴾ [البقرة /١٠٥] . ﴿لَهُم قُلُوب لا يَفْقَهونَ بِها﴾ [الأعراف /١٧٩] . وذم الله تعالى التقليد فقال حكاية عن الكفار : ﴿إنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّة وإنَّا عَلى آثارِهِم مُقْتَدون﴾ [الزخرف /٢٣] . وقال : ﴿بَلْ نَتَّبع ما وَجَدْنا عَلَيْه آبَاءَنا﴾ [البقرة /١٧٠] . وكل ذلك يدل على وجوب النظر والفكر وذم التقليد .

والمقصود من هذا رفع انكار الحشوية على من يشتغل بأصول الدين ،

مع أن أصول الدين ليس الا التمسك بهذه الدلائل ودفع الشبهات عنها وهي حرفة الأنبياء المعصومين ، والتقليد حرفة الكفار المخذولين .

على أن شرف العلم بشرف المعلوم ، ولما كان ذات الله وصفاته أشرف المعلومات كان العلم المتعلق به وهو علم أصول الدين أشرف العلوم ، ولأن العلم إما ديني أو غيره ، والديني أشرف من غيره ، والديني إما أصول الدين أو ما عداه ، وما عداه يتوقف عليه ، لأن المفسر إنما يبحث عن معاني كلام الله وذلك فرع على وجود الصانع المختار المتكلم[1] الذي لا يعرف الا في أصول الدين ، والمحدث انما يبحث عن كلام الرسول وذلك فرع على ثبوت نبوته ، والفقيه يبحث عن أحكام الله وذلك فرع على التوحيد والنبوة . فدل على أن هذه العلوم مفتقرة إلى أصول الدين وهو غني عنها فيكون أشرف ، ووجوه ترجيحه على سائر العلوم كثيرة لا يمكن ذكرها في هذا المختصر .

ولنذكر شيئا من طريقة السلف في الزام المنكرين بالادلة الضرورية : روى أن بعض الزنادقة انكر الصانع عند جعفر الصادق فقال له : هل ركبت البحر ورأيت أهواله ؟ قال : نعم ، ركبت البحر وهاجت رياح هائلة فكسرت السفينة وغرّقت الملاحين[2] ، فتعلقت ببعض الألواح ثم ذهب على ذلك اللوح فإذا أنا مدفوع بتلاطم الأمواج حتى وصلت الساحل . فقال جعفر : قد كنت ترجو السلامة ؟ قال : نعم ؟ فقال ممن كنت ترجوها ؟

فسكت الرجل فقال جعفر : ان الصانع هو الذي كنت ترجوه في ذلك

---

١ — في س . ن : « والمتكلم » وزيادة الواو خطأ واضح .

٢ — في ه : « وغرق ملاحون » وهو صحيح أيضا .

الوقت وهو الذي أنجاك من الغرق ، فأسلم على يده .

وروى أن أبا حنيفة كان سيفا قاطعا على الدهرية وكانوا يطلبون الفرصة لقتله فهجموا عليه وهو قاعد في المسجد بسيوف مسلولة فهموا بقتله فقال لهم : اجيبوني عن مسألة ثم افعلوا ما شئتم ، فقالوا : هات فقال : ما تقولون في رجل يقول لكم اني رأيت سفينة مشحونة في لجة البحر قد احتوتها أمواج متلاطمة ورياح مختلفة وهي مع هذا تجرى مستوية ليس لها ملاح يجريها ، هل يجوز ذلك في العقل ؟ قالوا : لا ، هذا شيء لا يقبله العقل . فقال أبو حنيفة : سبحان الله اذا لم يجز في العقل سفينة تجرى مستوية من غير ملاح[1] فكيف يجوز قيام هذا العالم العلوي والسفلي مع اختلاف أحواله من غير صانع ؟ ! فبكوا جميعا وتابوا واسلموا على يده .

وسأل بعض الحكماء الشافعي : ما الدليل على وجود الصانع ؟ فقال :

ورقة الفرصاد طعمها وريحها ولونها واحد عندكم ، فقالوا : نعم ، قال :

فيأكلها دودة القز فيخرج منها الابريسم والنحل فيخرج منها العسل ، والشاة فيخرج منها البعر ، والظبي فيعقد في نوافجها المسك[2] فمن ذا الذي[3] جعلها كذلك مع أن الطبع واحد ؟ فاستحسنوا منه ذلك وآمنوا على يده .

وتمسك أحمد بن حنبل بقلعة حصينة ملساء لا فرجة فيها ظاهرها

---

١ ــ م : « من غير متعهد »

٢ ــ م : « فينعقد »

٣ ــ م : « فمن الذي »

كالفضة المذابة وباطنها كالذهب الابريز ثم انشقت الجدران وخرج من القلعة حيوان سميع بصير فلا بد من الصانع عنى بالقلعة « البيضة » وبالحيوان « الفرخ » .

وسأل هارون الرشيد مالكا عن ذلك فاستدل باختلاف الأصوات وتردد النغمات وتفاوت اللغات .

وسئل أبو نواس عنه فقال :

تأمل في نبات الأرض وانظر   الى آثار ما صنع المليك

على قضب الزبرجد شاهدات   بأن الله ليس له شريك

وسئل أعرابي عن الدليل فقال : البعرة تدل على البعير ، والروث يدل على الحمير ، وآثار الأقدام على المسير ، فسماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج ، أما تدل على العليم القدير ؟

قيل لطبيب : بم عرفت ربك ؟ فقال : بهليلج مجفف أطلق ، ولعابه بلبن أمسك(١) . وقال آخر : عرفته بنحلة بأحد طرفيها تعسل وبالآخر تلسع ، والعسل مقلوب اللسع .

---

(١) [illegible] : نوع من [illegible] . والهليلج أصناف كثيرة من خصائص بعضها أن المقدار منه يعقل الطبع (أي يمسك) بغير مقدار يسهل (المعتمد في المفردات للطب للملك المظفر ٣٧٥) (المراجع) .

ولنرجع الى المقصود وهو الدليل على التوحيد فنقول : صانع العالم واحد . اذ لو كان له صانعان لثبت بينهما (تمانع) ، وذلك دليل حدوثهما أو حدوث أحدهما ، لأن احدهما لو أراد أن يخلق في شخص حياة والآخر موتا ، فان حصل مرادهما فهو محال لاجتماع الضدين في محل واحد ، أو لم يحصل مرادهما : فهو دليل عجزهما ، أو حصل مراد أحدهما دون الآخر ، فهو دليل عجز من لم تنفذ ارادته والعاجز لا يصلح إلها وهذا يسمى (دليل التمانع) المأخوذ من قوله تعالى ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء/٢٢]

قوله : « لا شريك له » أراد بهذا نفي أنواع الشرك . اذ الاشتراك في اللغة هو التسوية .

وهو إما في الذات كما فعلت الثنوية حيث أثبتوا للعالم صانعين : خيّرا ويسمونه (يزدان) ، وشريرا[١] ويسمونه (اهرمن) . وكذا الطبائعية والأفلاكية .

وإما في التسمية واستحقاق العبادة كما صنع مشركو العرب حيث عبدوا مع الله الأصنام وسموها الهة فصاروا مشركين مع اقرارهم بأن الله هو الخالق ، باعتبار عبادتهم غير الله ، قال الله تعالى : ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم مَنْ خَلَقَ السَّمواتِ والأرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزمر/٤٣] وإما في الوصف كما زعمت المجسمة حيث وصفوا البارىء بالصورة والجسمية والتمكن على العرش على مثال البشر تسوية منهم بين الله وبين خلقه فصاروا لذلك من جملة المشركين .

---

١ ـــ ب : « شر »

وقد نزه الله تعالى نفسه الكريمة عن جميع ذلك حيث قال : ﴿سُبْحانَ اللَّه عَمَّا يُشْرِكُون﴾ [الطور/٤٣] ﴿سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُون﴾ [الصافات/١٥٩] .

قوله : « ولا شيء مثله » هذا اثبات لكمال ذاته في الأزل بنفي النظير والمماثل قال الله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى/١١] وهذا محكم في هذا المعنى فيحمل عليه جميع الآيات المتشابهة التي تمسكت بظواهرها المشبهة .

قوله : « ولا شيء يعجزه » هذا وصف له بكمال القدرة لأن وجود كل موجود سواه بإيجاده ، فمحال أن يعجزه شيء ، فإن العجز نقص ، والله منزه عن النقائص ، ولأنه تعالى موصوف بكمال القدرة على كل شيء ، فلا يوصف بالعجز ، وإلا يلزم اجتماع النقيضين ، ولأنه تعالى خالق لجميع الأشياء ولا يتصور الخلق مع العجز ، وإليه الاشارة بقوله تعالى : ﴿أَوَلَيْسَ الَّذي خَلَقَ السَّمَوات والأرْض بِقادِرٍ عَلى أن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلى وَهُو الخَلَّاقُ العَليم﴾ [يس/٨١]

قوله : « ولا اله غيره » هذا نفي لكل معبود سوى الله اذ الاله في اللغة هو المعبود وكفار قريش كانوا يعبدون الأصنام مع اعترافهم ان الخالق هو الله الواحد وكانوا يقولون : نعبدهم ليقربونا الى الله ، فيفيد قوله « لا اله غيره » غير ما أفاد قوله « لا شريك له » فلا يكون تكرارا .

[القول في صفات الله تعالى وتنزيهه]

قوله : « قديم[1] بلا ابتداء » .

لأنه لو كان حادثا لافتقر الى محدث ، وذلك إلى آخر ، وهلم جرا الى أن يتسلسل أو ينتهي الى قديم ، والتسلسل محال فتعين الانتهاء الى قديم .

وانما أكد قوله « قديم » [بقوله] : « بلا ابتداء » لأن القديم في اللغة مأخوذ من قولهم قَدُم الشيء بالضم قدما فهو قديم أي مضى عليه زمان طويل . قال الزمخشري في قوله تعالى : ﴿عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ [يس/٣٩] : « القديم هو المُحْوِل ، فان أقل مدة الموصوف بالقدم الحول ، ومنه يقال في العرف هذا بناء قديم وهذا شيخ قديم » . وهذا المعنى غير مراد في حق الباري ، بل المراد بالقديم في صفاته هو الذي لا ابتداء لوجوده فأكد بذلك احترازا عن المعنى اللغوي والعرفي .

قوله : « دائم بلا انتهاء » .

لما ثبت أنه تعالى قديم ثبت أنه دائم . اذ القدم ينافي العدم ، وإنما قال « دائم بلا انتهاء » ليعلم ان دوامه تعالى ليس بمتعلق بالزمان لانتهائه وهو

---

١ ــ قال الأذرعي : جاء الشرع باسمه تعالى « الأول » وهو أحسن من « القديم » لأنه يشعر أن ما بعده آيل إليه وتابع له ، بخلاف « القديم » والله تعالى له الأسماء الحسنى (شرح الطحاوية ص ١١٤) (المراجع)

معنى قوله تعالى : ﴿هُوَ الْأَوَّلُ والآخر﴾ [الحديد/٣] أي الأول بذاته والآخر بذاته غير متعلق بزمان ، وإنما وصف نفسه بهذا لئلا يفهم من أوليته وآخريته ما يفهم من أولية وآخرية غيره ، إذ غيره يوصف بهما بواسطة وقوعه في الزمان السابق أو اللاحق ، لا بالذات .

قوله : « لا يفنى ولا يبيد » .

أي لا يتلاشى ولا يهلك . وانما جمع بين اللفظين تأكيدا لدوامه وبقائه . وقيل : أراد بالأول نفي تلاشي الذات ، وبالثاني نفي بطلان الحياة والصفات ، لأن ذلك في ذاته وصفاته محال لقدمه الثابت بذاته ، لكونه واجب الوجود بذاته واما بالذات لا يزول .

قوله : « ولا يكون الا ما يريد » .

لأن كل موجود سواه فهو بتخليقه وتكوينه وارادته لكون ما سواه ممكنا ، والممكن لا يترجح أحد طرفيه إلا بمرجح ، وذلك ارادة الله تعالى ، إذ لا مريد سواه . قال الله تعالى : ﴿يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [آل عمران/٤٠] وقال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ ما يُرِيدُ﴾ [المائدة/] وقال تعالى : ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل/٤٠] وصف نفسه بالمشيئة والارادة فتثبتان له حقيقة ، لا كما زعم الكعبي[1] ومن تابعه من المعتزلة كالنظام[2] من أنه تعالى لا يوصف بالارادة حقيقة بل مجازا لأن الارادة

---

١ ـ الكعبي : عبد الله بن أحمد بن محمود ، البلخي ، الخراساني ، أبو القاسم . أحد أئمة المعتزلة ، توفي سنة ٣١٧ أو ٣١٩ هـ . (الزركلي ، الأعلام : ٤/١٨٩)

٢ ـ النظام ، إبراهيم بن سيار بن هانئ . توفي سنة ٢٣١ هـ . (معجم المؤلفين ١/٣٧ ابن النديم : الفهرست ، ١/٢٠٣ ، ابن حجر ، لسان الميزان ، ١/٦٧)

هي الشهوة حقيقة وهو محال على الله .

ونحن نقول : معنى الارادة عندنا هي الصفة التي توجب اختصاص المفعول بوجه دون وجه وفي زمان دون زمان ، إذ لولا الارادة لوقعت الممكنات في وقت واحد على هيئة واحدة . فلما خرجت المقولات على الترادف والتوالي وعلى النظام والاتساق وعلى الهيئات المختلفة والأوصاف المتباينة على ما تقتضيه الحكمة البالغة كان دليلا على اتصاف الفاعل بالارادة . اذ وقوع هذا الاختلاف لم يكن من اقتضاء ذواتها ، فعلم ان ذلك لارادة الفاعل .

وقولهم الارادة شهوة فذلك تلبيس منهم لنفي الصفة عن الله تعالى لأن الشهوة ارادة مخصوصة وهي إرادة ما فيه نفع المريد ، والله تعالى غني مطلق لا تكون ارادته اشتهاء بل ربوبية .

والارادة مشتقة في اللغة من الرود وهو الطلب ولهذا سموا طالب الكلأ رائدا ومنه المثل « الرائد لا يكذب أهله » .

قوله : « لا تبلغه الأوهام ، ولا تدركه الأفهام » .

الوهم قوة يدرك [بها] الجزئيات ، والفهم ادراك العقل للكليات . والله تعالى ليس بذي وضع وكيفية فينطبع في الأوهام ، ولا بذي حد فيبلغ كنهه العقل ويحيط به ، بل هو متعال عن ذلك قال الله تعالى : ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه/ ١١٠] اذ الادراك والاحاطة بجميع اطرافه لا يتصور إلا فيما يحد وينتهي .

قوله : « ولا يشبهه الأنام » .

وهو كل ذي روح . وقيل : جميع الخلائق ، وقيل : المراد بالأنام البشر وهو الأشبه ، لأنه اراد به نفي قول المشبهة والمجسمة حيث وصفوا الباريء بأنه جسم على صورة البشر . وأيضا أراد نفي قول النصارى حيث جعلوا له ولدا وصاحبة تعالى الله عن ذلك . ولا شك ان الولد يشابه الأب فعلى هذا أفاد قوله : « ولا يشبهه الأنام » غير ما أفاد قوله فيما سبق « لا شيء مثله » لأن الأول عام وهذا خاص ، فيكون مبالغة في تنزيه الله عز وجل عما لا يليق به .

قال في التبصرة : المماثلة اسم جنس يشمل أنواعا أربعة : المشابهة ، والمضاهاة ، والمشاكلة ، والمساواة . والمماثلة بجميع أنواعها منتفية عن الله تعالى لأن المثلين هما اللذان يسد أحدهما مسد الآخر ، ويقوم مقام صاحبه ، ويصلح لما يصلح له المثل الآخر . وما سواه لا يسد مسده لكونه مقهورا تحت قهره فلا يصلح لما يصلح له القهار .

هذا على اصطلاحهم وأما المحققون فقسموا بوجه آخر وقالوا ان الاتحاد بالنوع (مماثلة) ، وبالجنس (مجانسة) ، وبالكم (مساواة) ، وبالكيف (مشابهة) ، وبالمضاهاة كاتحاد زيد وعمرو في بنوة بكر (مناسبة) ، وفي الشكل (مشاكلة) ، وبالوضع (موازاة)[1] ، وبالأطراف (مطابقة) كاتحاد أطراف طاسين عند انكباب أحدهما على الآخر .

قوله : « وهو حي لا يموت »

لقوله تعالى : ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَاراً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ

١ ــ في التعريفات للجرجاني : وفي الاضافة مناسبة ، وفي الخاصة مشاكلة : وفي الوضع موازنة . ونحوه في جامع العلوم ١/٣٤ (من الهامش) (المراجع)

فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ، وَرَزَقَكُم مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [غافر /٦٤ــ٦٥] ففي هذه الآية دلائل من حيث العقل والسمع على حياته ، لأنه بدأ بذكر الصانع وأتبعه بذكر الصنع بقوله (جعل) ثم ذكر المصنوع بقوله (الأرض) ثم ذكر دلالة المصنوعية [بقوله « قرارا »] أي جعلها مع سعتها وعظمها على هيئة تقرون عليها وتفترشونها وتتعيشون فيها وهي مذللة لا تدفع عن نفسها ، وشق الانهار فيها وأنبت أنواع الثمار منها ثم قال « والسماء بناء » أي سقفا محفوظا قائما في الهواء بلا عمد ولا علاقة ، ثم خاطب العقلاء في تصوير جوهرهم وتركيب أبدانهم لينظروا في آيات ألوهيته وكمال قدرته وحكمته فقال : ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ وهم يعلمون أنهم كانوا أمواتا نطفا سلت من صلب الرجال وترائب الأنثى ، ثم صارت النطفة في قرار مكين في ظلمات ثلاث انقطع عنها تدبير الأبوين . فدلهم على ربوبيته بآثار صنعه [بقوله « وصوركم »] اذ لا صنع إلا بالصانع ، ودلهم على معرفة حكمته وعلمهم بآثار الاتقان والاحكام بقوله « فأحسن صوركم » أي أحسن تركيبها منتصبة قامتها غير منكبة وابدع في بدنكم من القرن الى القدم أشياء يتحير العقل في ادراك[1] كنه حسنها ، وركب فيكم العقل الدراك ، ثم ذكرهم بنعمه عليهم فيما تقوم به أنفسهم فقال « ورزقكم من الطيبات » أي رزقكم من أطيب ما أخرج من الأرض لأنه أخرج منها نباتا مختلفا فجعل أطيبه وألينه رزقا للبشر ، وسائره رزقا للدواب ثم قال : « ذلكم الله ربكم » أي الذي صنع بكم هذا هو ربكم لا رب سواه . ثم قال : « هو الحي لا إله إلا هو » علمهم الاستدلال ان الفعل المحكم لا يتأتى[2] إلا من حي قادر عالم اذ من ينسب مثل هذه المصنوعات الى ما ليس بحي يكون

---

١ ــ س . ن : « بادراك »

٢ ــ س . ن : « لن يتثنى »

مجنونا خارجا عن عداد العقلاء . وكما يستدل بالفعل المحكم على كون الفاعل قادرا ، يستدل به على كونه حيا اذ الحياة شرط ثبوت القدرة وفي قوله « هو الحي » اشارة الى أنه هو الحي المطلق الذي حياته بذاته والى أن حياة غيره عارضة مستفادة من فيضه ، فهم أحياء بحياة هي غيرهم ، فلذلك يحل فيهم[1] الموت بآفة . فأما حياته بذاته فيستحيل أن يحله الموت اذ الواجب بذاته الأزلي لا يزول وإليه الإشارة بقوله سبحانه وتعالى ﴿وَتَوَكَّل عَلى الحَي الَّذي لا يَمُوت﴾ [الفرقان/٥٨] .

قوله : « قيوم لا ينام »

القيوم : هو القائم على كل نفس بما كسبت ، وقيل : هو الحافظ ، وقيل : القائم بتدبير أمر الخلق ، وقيل : القائم بذاته المقيم لغيره . وقوله « لا ينام » نفي للنوم والسِنة والسهو والغفلة عنه ، إذ النوم فترة تعتري الانسان فتمنعه عن استعمال الحواس والجوارح والله تعالى منزه عن ذلك . ولأن نفي النوم من لوازم كونه قيوما لأن جميع الأشياء قائم به فلو يعتريه النوم لانفسد نظام العالم قال الله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّه يُمْسِكُ السَّموات والأَرْض أَنْ تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إن أَمْسَكَهُما مِن أَحَد مِن بَعْدِه﴾ [فاطر/٤١] . فلذلك قرن القيوم بقوله لا ينام .

قوله : « خالق بلا حاجة » .

اذ الحاجة نقص المحتاج الى دفعها والله هو الغني المطلق فلا يكون له حاجة في فعله قال الله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّه لَغَنِيٌّ عَن العَالَمِين﴾

---

١ ـ ل ، م : « بهم »

[العنكبوت/٦] فان قيل قد جاء الخلق معللا في القرآن مثل قوله تعالى :

﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات/٥٦] فدل أنهم خلقوا للعبادة ،قلنا : تأويله إلا لآمرهم بعبادتي وأنهاهم عن معصيتي ثم أثيبهم على الطاعة وترك المعصية فكان الخلق لحاجة المكلفين لا لحاجته اذ النفع عائد اليهم وهو لا يتضرر بترك ذلك . وإنما حُمل على ذلك لئلا يلزم الخلف في خبر الله لأنا نعلم أنهم ما عبدوه بأسرهم .[1]

قوله : « رازق بلا مؤنة » .

أي يرزق الخلق بلا كسب ولا علاج ولا استعانة بسبب ، لأن جميع مراد الله يحصل بتكوينه على ما قال : ﴿إِنَّمَا قَوْلُنا لِشَيء إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل/٤٠] فلا يلحقه المؤنة والكلفة في ذلك لكمال قدرته .

قوله : « مميت بلا مخافة »

أي يميت الخلائق ولا يلحقه بذلك خوف ووحشة ، فإن وجودهم وعدمهم بالنسبة اليه سواء إذ هو العزيز القهار ، والمتفرد بالدوام والبقاء .

قوله : « باعث بلا مشقة » .

وذلك لأن الله تعالى خلق العالم بلا مشقة بالتكوين على ما قال : ﴿إِنَّما قَوْلُنا لِشَيء إِذا أَرَدْناهُ أَن نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل/٤٠] فيتعالى في

---

١ ــ أي على الأمر لا على الخبر إذ لم يجتمع الجن والانس على عبادته تعالى لكن الأمر شملهم .(المراجع)

البعث والاعادة عن لحوق المشقة ، إذ الاعادة أهون من الانشاء . وإليه الاشارة بقوله : ﴿وَهُو أهْوَن عَلَيْه﴾ [الروم/٢٧] وبقوله : ﴿افعيينا بالخَلْق الأوَّل﴾ [ق/١٥] أي ما عجزنا بالخلق الأول فكيف نعجز بالخلق الثاني ؟

وبقوله : « كما بدأنا أول خلق نعيده » وبقوله : ﴿هُوَ الَّذي يَبْدَأُ الخَلْق ثُمَّ يعِيدُه﴾ [الروم/٢٧] وقال جوابا لمن أنكر البعث : ﴿أوَلَم يَرَ الإنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإذا هُو خَصِيم مُبين وَضَرَبَ لَنا مثَلًا وَنَسِي خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِ العِظَامَ وَهِي رَمِيم ؟ قُل يُحْيِيها الَّذي أَنْشَأَها أَوَّل مَرَّة﴾ إلى أن قال ﴿أوَلَيْسَ الَّذي خَلَقَ السَّموات والأرْض بِقادِرٍ على أن يَخْلُقَ مِثْلَهم بَلى وَهُو الخَلَّاقُ العِليم﴾ [يس ٧٧ — ٨١] وألزم الحجة منكري النشأة الثانية فقال : « يا أيها الناس ان كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلَّقة وغير مخلَّقة » [الحج/٥] أي كيف تشكون في البعث وتنكرونه وقد خلقكم الله من التراب في اطوار مختلفة . ومعنى (مخلقة) أي مخلوقة خلقا تاما و (غير مخلقة) أي متروكة نطفة على حالها وقوله (لنبين لكم) أي لنبين لكم قدرته وسلطانه ، فان من قدر على تحويلكم من حال الترابية الى الانسانية ، وحال النطفة الى العلقة ، ثم الى المضغة ، فهو قادر على البعث والاحياء بعد ما تصيرون ترابا وتتلاشى أجزاؤكم ، فليس في موتكم الا هذا وقد أنشأكم ابتداء بلا مشقة فكذا يعيدكم ؟[1]

قوله : « ما زال بصفاته قديما قبل خلقه لم يزد بكونهم شيئا لم يكن قبلهم من صفاته »

---

١ ـــ م : « فكيف لا يعيدكم »

أراد بهذا الكلام ان الله تعالى موصوف بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أزلا وأبدا ، سواء كانت صفات الذات كالحياة والقدرة والعلم والارادة والمشيئة والسمع والبصر ، أو صفات الأفعال كالتخليق والتكوين والاحياء والإماتة . فان كلها صفات له قائمة بذاته قديمات مصونات [عن] الزوال .

وكان موصوفا بهذه الصفات قبل خلقه ، أي قبل مخلوقاته فان [الخلق] يذكر ويراد به المخلوق كقوله تعالى : ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ﴾ أي هذا مخلوقه .

وليس المراد بالخلق الصفة القائمة بذاته ، ولهذا قال : « لم يزدد بكونهم » أي بكون المخلوقات شيئا لم يكن قبل المخلوقات من صفته . معناه ما زاد في صفات الله بعد خلق الخلائق شيء لم يكن في صفاته قبل خلقهم بل صفاته قديمات أزلية .

والدليل على أن لله صفات قائمة بذاته النقل والعقل :

أما النقل فقوله تعالى : ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ﴾ [البقرة/٢٥٥] ، وقوله تعالى : ﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ [النساء/١٦٦] وقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّه هُوَ الرزاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينِ﴾ [الذاريات/١٥٨] أثبت الله لنفسه العلم والقدرة ، وكذا باقي الصفات أثبتت بقوله ﴿ الْحَيُّ الْقَيُّومِ﴾ وبقوله ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرِ﴾ وفيه نفي لقول المعتزلة حيث قالوا :

إنه حي وعالم وقادر لذاته لا لصفة زائدة على ذاته قائمة به ولكنا نقول : القول بحي لا حياة له وبعالم لا علم له وبقادر لا قدرة له محال ، كما ان القول بمتحرك لا حركة له محال . لأن هذه الصفات مشتقة من المعاني فلا يطلق

على الذات الا بقيام مأخذ الاشتقاق به .

وأما الدليل من حيث العقل فهو أن الله تعالى اخترع هذا العالم مع اختلاف أنواعه على ما هو عليه من الإحكام والإتقان وبديع الصنع وعجيب النظم والترتيب وتركيب الأفلاك الدائرة وما فيها من الكواكب السيارة وتسخير الشمس والقمر دائبين يستبقان فلا يتداركان ، ويتداركان فلا يختلطان ، وجعل الليل والنهار متكررين على الخلائق ، أحدهما يغشى بقوته وجوه الأشياء ويغطيها ، ويكشف الآخر السواتر عن وجوه الأشياء ويجليها .

وما يرى ويشاهد في أبدان الحيوانات من الحياة والتمييز والاهتداء الى اجتلاب المنافع واجتناب المضار وما فيها من لطائف الحواس ومجاري الأنفاس وما في الأجسام الجمادية من الخاصيات التي أودعت فيها على وجه لو تأمل علماء العالم وحكماء الأنام الموصوفون بدقة الأفكار وحِدَّة الخواطر جميع العمر لما وقفوا على كنهها ولا على جزء من ألف جزء مما فيها من آثار كمال الحكمة ولطائف التدبير . وفيه دليل قاطع لذوي العقول على أن صانع هذه الأشياء موصوف بصفات الكمال من العلم والقدرة والمشيئة والارادة والحكمة ، ومنزه عن اضدادها التي هي نقص .

قوله : « وكما كان بصفاته أزليا ، كذلك لا يزال عليها أبديا » .

والمقصود من هذا الكلام اثبات أزلية صفاته تعالى وأبديتها :

أما كونها أزلية فلأنها لو كانت حادثة لكانت :

١ ــ قائمة في ذاته .

٢ ــ أو في محل آخر .

٣ ـــ أو لا في محل .

والكل محال . أما (الأول) فلأن ذات الله ليس بمحل الحوادث ، وأما (الثاني) فلأن صيرورة الذات موصوفة بصفة قامت بغيره كصيرورة محل أسود بسواد قام بمحل آخر ، وكصيرورته قادرا بقدرة قامت بشخص آخر .

وكل ذلك باطل . وأما (الثالث) فلأن قيام الصفات لا في محل محال .

واذا ثبت أن صفاته أزلية بالضرورة تكون أبدية دائمة ، إذ الأزلي لا يزول .

وقيل في اشتقاق (الأزل) و (الأبد) أن الأزل اسم لما يضيق القلب عن تقدير بدايته من الأزل وهو الضيق ، والأبد اسم لما ينفر القلب من تقدير نهايته من الأبود وهو النفور . وذكر في « الصحاح » الأزل بالتحريك القدم وهو في الاصطلاح ما لا ابتداءَ لوجوده . والأبدي مالا انتهاء له .

قوله : « ليس منذ خلق الخلق استفاد اسم الخالق ، ولا بإحداث البرية استفاد اسم البارىء » .

الخالق والبارىء بمعنى واحد ، يقال : برأ أي خلق . والبرية الخليقة .

وانما كرر هذا الكلام تأكيدا لمعنى أن الله في الأزل متصف بصفات الكمال غير متعر عن شيء من صفات المدح ، إذ يستحيل أن تكون ذاته في الأزل خالية عن صفات الكمال ، لما في ذلك من النقص ، وهو محال على الله ، ولأن التعري منها يوجب الافتقار الى حصولها بايجاد العالم ، والله

تعالى غني عن العالمين متعال عن أن يكتسب صفة لم تكن له ، بإيجاد الخلق .

قوله : « له معنى الربوبية ولا مربوب ، ومعنى الخالق ولا مخلوق » .

هذا تحقيق لما ذكر أولا وتأكيد له ، فإنه تعالى خالق ورب قبل وجود المخلوق والمربوب ، لأن صفاته قديمة قائمة بذاته .

وحاصل هذا الكلام لنفي قول الاشاعرة حيث قالوا : ان صفات الذات قديمة وصفات الفعل كالخلق والايجاد والتكوين محدثة وهو قول عامة المعتزلة والنجارية[1] والكرامية .

ونحن نقول : إن الله بجميع صفاته قديم ، لأن الله تعالى مدح نفسه في الأزل بصفات الفعل بقوله : ﴿هُوَ اللَّهُ الخَالِقُ البَارِىءُ المُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى﴾ [الحشر/٢٤] فثبت أنه موصوف في الأزل لكونه خالقا ، بارئا ، مصورا ، ولا مخلوق في الأزل ولا مربوب ولا مصوَّر . ولأن صفات الفعل لو كانت حادثة في ذات الله يلزم أن يكون محلا للحوادث . وهو باطل أو في محل آخر ، أو لا في محل . والكل محال وقد مرَّ ردُّه .

قوله : « ذالك بأنه على كل شيء قدير »[2]

---

١ ـ النجارية : أصحاب محمد بن الحسين النجار ، وهم موافقون لأهل السنة في خلق الأفعال وان الاستطاعة مع الفعل ، وان العبد يكتسب فعله ، ويوافقون المعتزلة في نفي الصفات الوجودية وحدوث الكلام ونفي الرؤية (التعريفات للجرجاني)(المراجع)

٢ ـ قبل هذا في المتن كلام لم يظهر شرحه ونصه « وكما أنه يحيي الموتى بعدما أحيا ، استحق هذا الاسم قبل احيائهم ، كذلك استحق اسم الخالق قبل انشائهم . ذلك بأنه على ....» ولعل ذلك لوضوحه (المراجع)

أشار بقوله « ذلك » الى ما تقدم من الصفات مثل الاحياء والاماتة وغيرها ، وأراد به أنه تعالى موصوف في الأزل بأنه على كل شيء قدير وإن المقدورات[1] موجودة في الأزل ، فكذا موصوف بسائر الصفات مثل التخليق والتكوين وإن لم تكن المخلوقات في الأزل . ولأنهم يقرون بأنه عالم قادر سميع بصير في الأزل ولم يوجب ذلك كون معلوماته ومسموعاته ومقدوراته في الأزل ، فكذا يكون تكوينه الأزلي تكوينا لكل مكون لوقت وجوده .

قوله : « وكل شيء اليه فقير وكل أمر عليه يسير » .

معناه : كل شيء سواه مفتقر اليه في وجوده وبقائه لا وجود لشيء إلا بإيجاده ، ولا قوام لشيء إلا بتقويمه ، فهو القيوم الذي احوج كل شيء اليه ، هو الله الغني وأنتم الفقراء ، وجميع الأشياء يوجدها بخطاب « كن » فيكون جيمع الأمور عليه يسيرا لا تلحقه في ايجادها مشقة .

قوله : « ولا يحتاج الى شيء » .

لأن الحاجة نقص وهو منزه عنه ولأن جميع الأشياء مقهورة تحت قهره وموجودة بإيجاده، فكيف يحتاج الى غيره وقد وصف نفسه بكمال الغنى بقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت /٦] .

قوله : « وليس كمثله شيء وهو السميع البصير » .

إنما ذكر هذا عقيب نفي الحاجة عنه لأنه نص محكم لا احتمال فيه، وهو

---

١ ــ في م : « المقدرات » .

شامل لنفي جميع صفات المخلوقين وسمات المحدثين ومثبت لصفات المدح والكمال . فلو كانت صفات الأفعال محدثة ـــ كما زعمت الاشاعرة ـــ يلزم أن تكون صفاته مثل صفات المخلوقات في الحدوث . . والمماثلة منتفية بالنص .

قوله : « خلق الخلق بعلمه وقدر لهم أقدارا » .

هذا الكلام لبيان إن كل أمر يجري في العالم فهو بتقدير الله تعالى .

سئل أبو حنيفة رحمه الله عن القدر فقال : قد بين الله تعالى ذلك وقرأ قوله تعالى : ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر/٤٩] فما بقي في العالم شيء إلا وهو داخل فيه .[١]

ثم القدر على وجهين :

احدهما : الحد الذي يخرج عليه كل شيء على ما جعله عليه من خير أو شر وحسن وقبح وحكمة وسفه ، وهو تفسير الحكمة وهي جعل كل شيء على ما هو عليه ولائق به .

والوجه الثاني للقدر هو بيان ما يقع عليه كل شيء من خير وشر وما له من الثواب والعقاب .

قوله : « وضرب لهم آجالا » .

---

١ ـــ ه : « فما بقي شيء داخل في العالم إلا وهو داخل فيه » .

وهذا تحقيق بأن الأجل المضروب لكل واحد منهم مبرم محكم لا يحتمل التقدم والتأخر ، قال الله تعالى : ﴿فَإِذا جَاءَ أَجَلُهُم لا يَسْتَأْخِرونَ ساعَةً ولا يَستَقدِمون﴾ [الأعراف/٣٤] وقوله تعالى : ﴿كِتَابا مُؤَجَّلا﴾ [آل عمران/١٤٥] فيه معنيان أحدهما كتابا مؤقتا[1] لا يتقدم ولا يتأخر .

والثاني : كتابا مبينا في اللوح المحفوظ مكتوبا فيه ، كقوله تعالى : ﴿وَكُلَّ شَيءٍ أحصَيْناهُ في إمَام مُبين﴾ [يس/١٢] .

قوله : « لم يخف عليه شيء من أفعالهم ، قبل أن خلقهم ، وعلم ما هم عاملون قبل أن يخلقهم » .

معناه : لا يخفي على الله شيء من أفعال العباد قبل أن خلقهم . فهذا اقرار بسبق علم الله تعالى بكل كائن من خلقه قبل كونهم ، لأنه تعالى قديم بصفاته ومن صفاته كونه عالما بكل المعلومات قبل كونهم في الأزل .

وإنما قرن التخليق بالعلم بكل المعلومات لأن العلم بالمخلوق من شرط التخليق . قال الله تعالى : ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك/١٤] وقال تعالى :

﴿وَهُوَ الخَلَّاقُ العَليم﴾ [يس/٨١] وقال تعالى : ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْق عَلِيم﴾ [يس/٧٩] فقرن في جميع هذه الآيات الخلق بالعلم .

قوله : « وأمرهم بطاعته ونهاهم عن معصيته » .

انما ذكر الأمر والنهي بعد ذكر الخلق ليعلم أنه تعالى انما خلقهم للاستعباد بالأمر والنهي قال الله تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإِنْسَ إِلا

لِيَعْبدونِ﴾ [الذاريات/٥٦] أي لِآمرهم بعبادتي وأنهاهم عن معصيتي .

قوله « وكل شيء يجري بقدرته ومشيئته » .

اعلم ان كل حادث : بإرادة الله ومشيئته وقدرته ، خيرا كان أو شرا عند أهل السنة والجماعة . قال الله تعالى : ﴿وَاللَّه خَلَقَكُم وَما تَعْملون﴾ [الصافات/٩٦] أي وعملكم مطلقا وقال تعالى : ﴿خَالِقُ كُلِ شَيء﴾ وفعل العبد شيء فيكون خالقه ضرورة وقال تعالى : ﴿قُلْ كُلٌّ مِن عِندِ الله﴾ [النساء/٧٨] . وروى مسلم في صحيحه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه : (بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه واله وسلم اذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب) الى قوله (أخبرني عن الايمان فقال :

الايمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره ..) الحديث .

قوله : « ومشيئته تنفذ ، ولا مشيئة للعباد إلا ما شاء لهم فما شاء لهم كان وما لم يشأ لم يكن » .

لقوله تعالى : ﴿وَما تَشاؤُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّه رَبُّ العَالَمِين﴾ [التكوير/١٩] . ولأن في نفاذ مشيئة غير الله وعدم نفاذ مشيئته أمارة عجزه حيث جرى في ملكه ما لم يشأ وهو على الله محال .

وقوله : « يهدي من يشاء،ويعصم ويعافي من يشاء فضلا ، ويضل من يشاء ،ويخذل ويبتلى من يشاء عدلا ، وكلهم يتقلبون في مشيئته بين فضله

وعدله » .

بين بهذا الكلام أن العباد لا يستحقون على الله وجوب مراعاة الأصلح ، بل يتصرف فيهم كيفما يشاء ، لأن العالم ملكه وملكه[1] وللمالك أن يتصرف في ملكه كيفما يريد قال الله تعالى : ﴿وَيَفعَلُ اللَّه مَا يَشاءُ﴾ [ابراهيم/٢٣] وقال : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة/١] وفيه رد لقول المعتزلة حيث قالوا : يجب على الله أن يفعل بعباده ما هو الأصلح لهم .

ومما يردُّ قولهم ما صرح في كثير من الآيات بالاضلال كما في قوله تعالى :

﴿ يُضِلُّ اللَّه مَن يَشاءُ وَيَهدِي مَن يَشَاءُ﴾ [المدثر/٣١] وقوله : ﴿ يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهدِي بِهِ كَثيراً﴾ [البقرة/٢٦] وقوله : ﴿وَلَو شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرضِ﴾ [يونس/٩٩] وقوله : ﴿فَلَو شَاءَ لَهَداكُم أَجْمَعِينَ﴾ [النحل/٩] فلو كان الأصلح على الله واجبا لما كفر أحد ولا عصى في العالم ، لأن الكفر والعصيان ليسا بأصلح للعباد . فمن أراد منه الايمان فهو بفضله لا باستحقاق ، ومن أراد كفره فهو بعدله لا يكون بذلك ظالما ، لأن الظلم هو التصرف في غير ملكه وهو متصرف في ملكه لا يسأل عما يفعل ، ولأن في إيجاب الأصلح ابطال قوله تعالى : ﴿ذُو الفَضْلِ العَظيمِ﴾ [الحديد/٢١] لأنه لا فضل في قضاء حق واجب عليه ، وكذا فيه إبطال اسم المحسن والمنعم والمجمل والمنان اذ لا احسان ولا افضال ولا منة في أداء ما هو واجب عليه .

قوله : « ولا رادَّ لقضائه ولا معقِّبَ لحكمه » .

---

١ ــ في ل :ملكه (مرة واحدة) والمراد بملكه(بالضم)السلطنة والملك(بالكسر)التصرف المطلق . (المراجع)
٢ ــ أخرجه مسلم (الايمان/١)

أراد بهذا قضاء التكوين الذي لا يقدر العباد على رده ، لأن في رد قضائه اثبات عجزه ، وهو محال .

و (القضاء) يذكر ويراد به الحكم والأمر والفعل .

و (التعقيب) التأخير . ولا معقب لحكمه أي لا مؤخر لما قضاه لأن الناس كلهم مقهورون تحت قهره وجبروته فلا يقدر أحد على ذلك .

قوله : « ولا غالب لأمره » .

يحتمل أن يراد بالأمر التكوين . قال الله تعالى : ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل/٤٠] وفيه نفي الربوبية عن غيره واثبات الوحدانية له ويحتمل أن يراد بالأمر القضاء فيكون معناه لا يقضي عليه أحد قهرا لأنه هو الواحد القهار .

قوله : « آمنا بذلك كله ، وأيقنا أن كلًّا من عنده » .

أي صدقنا بجميع ما تقدم . فتكون الاشارة بقوله « ذلك » الى جميع ما سبق ذكره . وفي ذكر (الايقان) بعده اشارة الى أن الايمان بما سبق ليس بالتقليد المحض بل بالدلائل السمعية والبراهين العقلية علما يقينا لا يعتريه شك . و (اليقين) من يقن الماء اذا استقر ، لأن العلم الثابت بالاستدلال يسمى يقينا لثبوته واستقراره قال الله تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام/٦٥] سماه موقنا لحصول العلم له بالاستدلال من المصنوع على الصانع .

[القول في النبوة]

قوله : « وإن محمدا عبده المصطفى وأمينه المجتبى ورسوله المرتضى » .

لما فرغ من اثبات وحدانية الله وصفاته شرع في اثبات نبوة سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم ، اتماما للايمان بالشهادتين ، اذ الايمان هو معرفة الله بأسمائه وصفاته ، وتصديق الرسول بما جاء به من الشريعة ، ولهذا قرن الله تعالى الايمان بالرسول مع الايمان به حيث قال : ﴿قُل يَا أَيُّها النَّاس إنِّي رَسُولُ اللَّه إلَيْكُم جَميعاً﴾ إلى قوله : ﴿فآمِنُوا باللَّه ورسُولِهِ النَّبيّ الأمِيّ﴾ [الأعراف/١٥٨]

وقوله « وإن محمدا » معطوف على قوله « إن الله واحد » والتقدير :

نقول في توحيد الله معتقدين بتوفيق الله : إن الله واحد .. إلى آخره وإن محمدا عبده المصطفى .

وإنما قدم وصفه بالعبودية على وصفه بالنبوة دفعا[1] للشبهة العارضة للناس ، عند ظهور المعجزات الخارقة للعادة التي يعجز عنها البشر ، بأن فيه معنى الألوهية ، كما اعترضت الشبهة للنصارى حيث اعتقدوا في عيسى الالهية بسبب ما وجدوا منه فعلا إلهيا من احياء الموتى وابراء الأكمه والأبرص

١ ــ في س . ل : « رفعا » .

وكان أول آياته تكلمه في المهد بأن ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم/٣٠] . فبدأ بعبوديته قطعا للشبهة العارضة لقومه ومع ذلك أخرجوه من العبودية وأثبتوا له الربوبية .

وللنبي صلى الله عليه وآله وسلم معجزات باهرة وبينات ظاهرة مذكورة في دلائل النبوة .

وانما وصفه بالاجتباء والأمانة ليعلم أن الله تعالى لا يظهر المعجزة إلا على الأمين المختار لا الكاذب الذي هو من الفجار . والمجتبى معناه : المختار ، والمرتضى : الذي رضي الله عنه برسالته .

قوله : « وخاتم الأنبياء » .

لقوله تعالى : ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب/٤٠] ولأنه لما ثبتت رسالته بالبراهين العقلية والنقلية ثبت أنه صادق فيما أخبر وقد أخبر أنه لا نبي بعده وقال : « أنا الحاشر الذي يحشر الناس على عقبي »[1] فدل أنه خاتم الأنبياء .

قوله : « إمام الاتقياء » .

لأنه بعث بالتقوى عن الشرك والمعاصي ، فأمته المتقون وهو إمامهم فيكون إمام الاتقياء ، ولأنه أم بالنبيين وهم أتقياء فهو إمام المتقين .

قوله : « وسيد المرسلين » .

---

١ ـ البخاري (المناقب/١٧) ، ومسلم (الفضائل/١٢٤ ـ ١٢٥) والترمذي (الأدب/٦٧) والدارمي (الرقاق/٥٩) والمسند ٤/٨٠ ، ٨١ ، ٨٤ ، ٣٩٥ .

لأنه ثبت في الأخبار أنه قال : « أنا سيد ولد آدم »[1] والمرسلون داخلون في ذلك فيكون سيدهم .

قوله : « وحبيب رب العالمين » .

لأنه لما ثبتَ ببركة متابعته لأمته أنهم أحباؤه حيث قال تعالى بلسان نبيه : ﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران/٣١]، فلأن يثبتَ أنه حبيب الله أولى . وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه جلس ذات يوم جماعة من الصحابة يتذاكرون ، فسمع حديثهم النبي عليه السلام فقال بعضهم : عجبا ان الله اتخذ ابراهيم خليلا ، وقال آخر : ما ذا بأعجب من كلام موسى كلمه تكليما ، وقال آخر : فعيسى كلمة الله وروحه ، وقال آخر : آدم اصطفاه الله ، فخرج النبي عليه السلام فقال : (سمعت كلامكم وحجتكم ان ابراهم خليل الله وهو كذلك وموسى نجيّ الله وهو كذلك ، ألا و أنا حبيب الله ولا فخر ، وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر ، وأنا أول من يحرك حلقة الجنة فيفتح لي فأدخلها ومعي فقراء أمتي ، وأنا أكرم الأولين والآخرين ولا فخر ، آدم ومن دونه تحت لوائي يوم القيامة ، وأنا أول الناس خروجا اذا بعثوا ، وأنا خطيبهم إذا وفدوا ، وأنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر)[2] .

قوله : « وكل دعوة نبوة بعد نبوته فغي وهوى » لأنه لما ثبت بالنص القطعي أنه خاتم النبيين وأنه لا نبي بعده فمن ادعى النبوة بعده فهو يريد تكذيب النص القطعي فيكون غيا . يقال : غوى يغوى غيا اذا سلك

---

١ ــ مسلم (الفضائل/٢٢٧٨) وأبو داود (السنة/١٤) وابن ماجه (الزهد/٣٧)
٢ ــ الدارمي (المقدمة/٨)

خلاف طريق الرشد ، قال الله تعالى : ﴿قَد تَبَيَّنَ الرُّشدُ مِنَ الغَيِّ﴾ [البقرة/٢٥٦] ، أي قد ظهر الهدى من الضلالة والايمان من الكفر والحق من الباطل . والهوى عبارة عن شهوة النفس وميله الى الباطل . قال الله تعالى : ﴿وَنَهَى النَّفسَ عَنِ الهَوى﴾ [النازعات/٤٠] ، فتكون تلك الدعوى صادرة عن هوى النفس لا عن دليل فيكون باطلا .

قوله : وهو المبعوث الى عامة الجن وكافة الورى ، فهو رسول الثقلين .

أما الدليل على أنه مبعوث الى كافة الإنس فقوله تعالى : ﴿قُل يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيكُم جَمِيعاً﴾ [الأعراف/ ١٥٨] وقوله تعالى : ﴿وَمَا أَرسَلنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾ [سبأ/٢٧] فبطل بهذا زعم من قال من اليهود أنه رسول الى العرب فقط . وأما الدليل على أنه مبعوث الى عامة الجن فقوله تعالى : ﴿قُل أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّه استَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الجِنِ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعنَا قُرآنا عَجَبا يَهدِي إِلى الرُّشدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾ [الجن/١] الى قوله : ﴿وأَنَّا لَمَّا سَمِعْنا الهُدى آمَنَّا بِهِ﴾ [الجن/١٣] .

قوله : « بالحق والهدى ، وبالنور والضياء » .

الباء في قوله « بالحق » متعلق بقوله ، « وهو المبعوث » والتقدير : وهو المبعوث بالحق الذي لأجله خلقت السموات والأرض ، وهو الدلالة على وحدانية الصانع ، والاستعباد بالأوامر والنواهي ، والبعث بعد الفناء للجزاء في دار البقاء . ويحتمل أن يكون المراد « بالحق » الحق الذي لله على العباد من الشرائع والفرائض والواجبات وما لبعضهم على بعض .

و « الهدى » هو الدلالة الموصلة الى المقصد[1] بدليل وقوع الضلالة في

---

١ — في س ، ن : (القصد) .

مقابلته ، قال الله تعالى : ﴿أولَئِكَ الَّذينَ اشتَرَوا الضَّلالَةَ بالهُدى﴾ [البقرة/١٦] ، وقيل معنى الهدى البيان ، أي المبعوث لبيان طريق الحق للخلق ، قال الله تعالى : ﴿وَإنَّكَ لَتَهدِي إلى صِراطٍ مُستَقيمٍ﴾ [الشورى/٥٢] والمراد بالنور والضياء الشريعة الظاهرة بالبراهين الباهرة من القرآن وسائر الدلائل الدالة على الحقيقة . ووجه التشبيه بين النور والقرآن ظاهر من حيث الاهتداء به ، والنور ضوء كل مضيء وهو نقيض الظلمة ، والإضاءة فرط الانارة فيكون الضوء أبلغ من النور مصداق ذلك قوله تعالى : ﴿هُوَ الذِّي جَعَلَ الشَّمسَ ضِياءً وَالقَمَرَ نُوراً﴾ [يونس/٥] .

[القول في كلام الله تعالى]

قوله : « وإن القرآن كلام الله عز وجل ، منه بدا بلا كيفية قولا ، وأنزله على نبيه وحيا ، وصدقه المؤمنون على ذلك حقا » .

لما فرغ من بيان التوحيد والنبوة شرع في بيان العقيدة في القرآن ، لأن مدار الشريعة عليه ، وهو معجزة دالة على النبوة . وقد اختلف فيه الناس فمن المهم بيان ما هو الحق ، فقال : « وإن القرآن كلام الله » وهو عطف على قوله « إن الله واحد » . والتقدير نقول ــ معتقدين ــ : إن الله واحد وإن محمدا عبده المصطفى وإن القرآن كلام الله لقوله تعالى :

﴿حتى يسمع كلام الله﴾ [التوبة/٦]﴿يريدون أن يبدلوا كلام الله﴾ [الفتح/١٥] .

وأراد بنفي الكيفية عنه اثبات ازليته ردا على المعتزلة والكرامية ، ونفي كونه من جنس الحروف والاصوات ردا على الحنابلة[1] ، وذلك لأن كلام الله صفته القائمة بذاته فيكون قديما كسائر صفاته اذ لو كان حادثا فإما أن حدث في ذاته كما زعمت الكرامية فيصير ذاته محلا للحوادث وهو لا يجوز،

[1] ــ سيأتي ايضاح المراد بعد بضعة أسطر .(المراجع)

أو لا في محل وهو محال أيضا لأن الكلام عرض فلا بد له من محل . أو حدث في محل آخر فيكون المتكلم ذلك المحل لا خالقه .

وقول الحنابلة وهو أنه حروف غير مخلوقة قائمة بذاته أيضا باطل لأن الحروف تتوالى ويقع بعضها مسبوقا ببعض وكل مسبوق حادث ، ولأن الحروف لا تصدر الا من الآلات وهي الحلق والشفة وغيرهما . فيلزم منه التجسيم تعالى الله عن ذلك[1][2] .

وانما قال « أنزله على نبيه وحيا » لقوله تعالى : ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ [الانعام/١٩] وقوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ [آل عمران/٧] وانما قال « وصدقه المؤمنون على ذلك حقا » لأن الصحابة شهدوا نزوله على الرسول ، وتحققوا إعجازه ، وصدقوا كونه كلام الله تعالى ، ثم نقلوا الى من بعدهم بالتواتر كما نقلوا عن رسول الله

---

[1] ــ ليس المقصود بقول الحنابلة هنا . وفيما سبق قبل بضعة أسطر . مذهب الإمام أحمد بن حنبل ، أو مذهب جمهرة أصحابه في العقيدة لما ينصرف عند النسبة اليه ، بل المراد أنه قول فئة من منتحلي مذهبه الفقهي مذهب أحمد . وهو قول خاص بهم وليس مستمدا من إمامهم . وقد اعتبر قول الحنابلة للتمييز بهذه التسمية ، وليس لمتبعيهم في ذلك أحمد أو أصحابه المنتمون إليه في العقائد . وقد أشار ابن أبي العز الحنفي شارح الطحاوية الى هذا القول (ص ١٨٠ ط . المكتب الاسلامي) حين سرد أقوال الناس في الكلام فقال : « وسابعها : أنه حروف وأصوات أزلية مجتمعة في الأزل » ثم قال : « وهذا قول طائفة من أهل الكلام ومن أهل الحديث » ولا يخفى أن معظم أهل الحديث ينحون في الفقه منحى الامام أحمد بن حنبل . فيبدو أن هذه الطائفة من أهل الحديث هم حنابلة . ثم أورد ابن أبي العز القول الممثل لمذهب أحمد (الذي هو من أئمة الحديث) فقال : « وتاسعها أنه تعالى لم يزل متكلما إذا شاء ومتى شاء وكيف شاء ، وهو يتكلم به بصوت . وأن نوع الكلام قديم وإن لم يكن الصوت المعين قديما . وهذا المأثور عن أئمة الحديث والسنة » (المترجم) .

[2] ــ قول الشارح أن كلام الله ليس بحرف وليس بصوت يناقضه ما هو معلوم من الدين أن موسى سمع كلام الله وسمعه جبريل وأن القرآن كلام الله وهو من حروف وكلمات بعضها يتلو بعضا . وقد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « لا أقول آلم حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف » ففي كلام الشارح مخالفة وتعمية لما في المتن . (المترجم)

عليه السلام ودعوا الخلق إلى إقامة حكمه اعتقادا وعملا وذلك دليل على تصديقهم .

قوله : « وأيقنوا أنه كلام الله عز وجل بالحقيقة »[1] اي علموا باليقين ان القرآن كلام الله تعالى بالحقيقة ، كالعلم والحياة وسائر الصفات . وفيه رد لمذهب المعتزلة حيث قالوا : انما سمي القرآن كلام الله بطريق المجاز لانه خالقه . قلنا : هذا فاسد ، فإن المتكلم حقيقة من قام به الكلام لا من خلق الكلام ، كالعالم من قام به العلم ، من خلق العلم في غيره ، إذ لو اتصف بالكلام مع أنه لم يقم به باعتبار أنه خالقه لاتصف بالسواد وسائر الألوان المختلفة لأنه خالقه .

قوله : « فمن سمعه وزعم أنه كلام البشر فقد كفر » .

هذا رد لقول المنافقين الذين كانوا يطعنون فيه بأنه كلام محمد يقوله من تلقاء نفسه من غير أن يوحى اليه من ربه وقد ذمَّ الله تعالى أي عاب ، وأوعد بسقر أي بعذاب النار لمن قال إنه كلام البشر حيث قال إخبارا ﴿وإِن هَذا إِلَّا قَوْلُ البَشَرِ. سَأُصلِيهِ سَقَرَ﴾ [المدثر/٢٥].

قوله : « فلما أوعد الله بسقر لمن قال إن هذا إلا قول البشر ، علمنا أنه قول خالق البشر ، ولا يشبهه قول البشر فمن ابصر هذا اعتبر وعن مثل قول

---

[1] قد قال ابن أبي العز الأذرعي في موضع آخر (ص ١٩٦) أن قول الطحاوي « وأيقنوا أنه أي القرآن كلام الله عز وجل بالحقيقة » رد على من قال « ان كلامه معنى واحد قام بذات الله تعالى لم يسمع منه » لأنه لا يقال لمن قام به الكلام النفسي ولم يتكلم به إن هذا كلام حقيقة وإلا لزم أن يكون الأخرس متكلما ولزم أن لا يكون الذي في المصحف عند الاطلاق هو القران ولا كلام الله ولكن عبارة عنه . ثم رد قول البابرتي ومن قال بمثل قوله من وجوه كثيرة يحسن الرجوع إليها . (المراجع)

الكفار انزجر » .

هذا كله تأكيد لنفي حدوث الكلام وجعله من جنس الحروف والاصوات[1] مشابها لكلام المخلوقين فإن من قال بخلق القرآن وحدوثه وأنه من جنس الحروف والأصوات فقد وصف الباري بما يوصف بها البشر، فيكون هذا القول مشابها لقول الكفار الذين هم قائلون بأنه كلام البشر، لما فيه من تشبيه الخالق بالخلق. فمن تأمل في هذه المعاني وبحث عنها وفهمها وقع له الاعتبار ووجب عليه الانزجار عما يقوله الكفار.

قوله : « وعلم ان الله تعالى بصفاته ليس كالبشر » .

فإن صفاته قديمة قائمة بذاته ليست بقابلة للزوال، وصفات البشر حادثة كذواتهم قابلة للزوال والفناء والكيفيات والكميات، والله تعالى متعال عن ذلك كله، ليس كمثله شيء.

---

١ ــ نظر التعليقات السابقة (المراجع).

[القـــول في الرؤيـــة]

قوله : « والرؤية حق لأهل الجنة بغير احاطة ولا كيفية ، لما نطق به كتاب ربنا جل وعلا ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ وتفسيره على ما أراد الله تعالى وعلمه وكل ما جاء في ذلك من الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فهو كما قال ، ومعناه على ما أراد[1] .

أراد أن يثبت أن رؤية الله تعالى « بالأبصار » في دار القرار للابرار حق ، فيرونه لا في مكان ولا على جهة أو اتصال شعاع أو ثبوت مسافة بين الرائي وبينه تعالى ، وهو المراد بقوله « ولا كيفية » . ومقصوده : الاعتقاد بأصل الرؤية وعدم الاشتغال بالكيفية .

---

١ ـــ قال ابن أبي العز في شرحه للطحاوية ص ٢٣٩ الواجب أن ينظر في هذا الباب ، أعني باب الصفات ، فما أثبته الله ورسوله أثبتاه ، وما نفاه الله ورسوله نفياه . والألفاظ التي ورد بها النص يعتصم بها في الاثبات والنفي ،فنثبت ما أثبته الله ورسوله من الألفاظ والمعاني ، وننفي ما نفته نصوصهما من الألفاظ والمعاني . وأما الألفاظ التي لم يرد نفيها ولا اثباتها فلا تطلق حتى ينظر في مقصود قائلها : فإن كان معنى صحيحا قبل ، لكن ينبغي التعبير عنه بألفاظ النصوص ، دون الألفاظ المجملة ، إلا عند الحاجة ، مع قرائن تبين المراد ، والحاجة مثل أن يكون الخطاب مع من لا يتم المقصود معه ان لم يخاطب بها ، ونحو ذلك. ثم قال ما معناه : هذه الأنواع من نفي المكان والجهة والمسافة وما يأتي من نفي الجسم ، لا يجوز نفيها على الاطلاق ولا اثباتها على الاطلاق لأن كلا من النفي والاثبات يوهم خلاف مادل عليه الكتاب والسنة ، ولم يرد بنفيها كتا ولا سنة ونفيها على الاطلاق يوهم نفي مادل عليه كتاب الله تعالى من علوه سبحانه على خلقه واستوائه على عرشه ففيه تحميل لكلام الطحاوي مالا يحتمل . (المراجع) .

وإنما قال « بغير إحاطة » لان الاحاطة وهي الادراك بالجوانب محال على الله ، لانه ليس بجسم حتى يكون له نهايات فيدرك بها . وعليه يحمل قوله تعالى : ﴿لَا تُدْرِكُه الأَبصَار وَهُو يُدرِكَ الأبصار﴾ [الأنعام/١٠٣]

« لما نطق به كتاب ربنا » وهو قوله تعالى ﴿وُجُوهٌ يَومَئِذٍ نَاضِرَة إلى رَبِّها نَاظِرَة﴾[القيامة/٢٢] وتفسيره ما أراد الله تعالى . والنظر المضاف الى الوجه المقيد بكلمة « إلى » لا يكون الا نظر العين وحمل النظر على الانتظار المنغص للنعم في دار القرار سمج . وقوله تعالى في قصة موسى : ﴿رَبِّ أرِني أَنْظُر إلَيكَ﴾ [الأعراف/١٤٣] وجه التمسك به ان موسى عليه السلام سأل ربه الرؤية ولا نظن به انه سأل ما هو محال عنده وكان السؤال دليلا انه اعتقده جائز الرؤية فمن احال الرؤية فقد نسب موسى الى الجهل بالخالق وهو كفر وقوله تعالى : ﴿لِلَّذِينَ أحْسَنُوا الحُسنى وَزِيَادَة﴾ [يونس/٢٦] وقد فسر النبي عليه السلام الحسنى بالجنة والزيادة بالنظر الى الله تعالى وقوله تعالى ﴿تَحِيَّتُهمْ يَومَ يَلقَونَه سَلام﴾ [الأحزاب/٤٤] واللقاء هو الرؤية . وقوله تعالى ﴿كَلا إنَّهم عَن رَبِّهِم يَومَئِذٍ لَمَحجُوبُون﴾ [المطففون/١٥] فتخصيص الكفر بالحجاب دليل على عدم الحجاب للمؤمنين والا يلزم ان يكون الابرار في الحجاب مساوين للكفار. وأمثال ذلك من الآيات الدالة على جواز الرؤية اكثر من ان يحصى .

واما الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فهو قوله عليه السلام : (إنكم سترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر ليلة البدر لا تضامُّون في رؤيته)[1] . والمراد تشبيه الرؤية بالرؤية في عدم الشك والخلاف فيها ، لا تشبيه المرئي بالمرئي ، وقوله صلى الله تعالى عليه وسلم :

---

١ ــ البخاري (المواقيت/١٦ ، ٢٦ والأذان/١٢٩ و التفسير/٥٠ : ٥٥ والرقاق/٥٢ والتوحيد/٢٤ ؛ وأبو داود (السنة/٢٠) والترمذي (الجنة/١٦) والمسند ٣/١٦ ، ١٧ ، ٢٦ ، ٢٧ .

(إذا دخل أهلُ الجنةِ الجنةَ يقول الله تبارك وتعالى : يا أهل الجنة تريدون شيئا ازيدكم؟ فيقولون : يا ربنا الم تبيض وجوهنا ؟ الم تدخلنا الجنة؟ ألم تنجنا من النار ؟ قال فيكشف الحجاب فما اعطوا شيئا احب اليهم من النظر الى ربهم تبارك وتعالى)[١] فينسون النعيم اذا رأوه فيا خسران اهل الاعتزال !

قوله « ولا ندخل في ذلك متأوِّلين برأينا ، ولا متوهمين بأهوائنا » .

هذا رد على المعتزلة حيث أولوا قوله تعالى : ﴿إلى رَبِّها ناظِرَة﴾ [القيامة/١٣] ان كلمة (الى) هاهنا واحدة (الآلاء) ، بمعنى النعمة ، كقوله تعالى ﴿فبأيِّ آلاءِ رَبِّكمَا تُكذِّبان﴾ [الرحمن/١٣] فيكون لفظ النظر عاريا عن حرف الى فيكون المعنى : وجوه يومئذ ناظرة الى نعماء ربها ومنتظرة لها . وهذا التأويل ، مع بعده ، فاسد ، لأن حمل النظر على الانتظار الذي هو موجب للحزن — كما قيل : ان الانتظار موت أحمر — في دار السرور سمج . وحملهم على هذا التأويل الفاسد وهمهم الباطل والهوى الذي هو من المهلكات حيث تركوا الطريق الواضح واتبعوا الهوى .

قوله : « فإنه ما سلم في دينه الا من سلم لله عز وجل ولرسوله عليه السلام ورد علم ما اشتبه عليه الى عالمه » .

انما قال ذلك لانه يجب على كل مسلم تسليم ما ثبت كونه من الله تعالى ومن رسوله ، سواء علم الحكمة فيه أو لم يعلم ، ولا يردُّ ذلك بسبب عدم ادراكه ،فإن عقول البشر قاصرة عن ادراك حكم الله تعالى ، لان العقل جزء من أجزاء العالم فكيف يحيط بحكم الربوبية ؟ فمن اراد سلامة دينه يجب عليه أن يرد علم ما اشتبه عليه الى الله، فإنه العالم بحقائق الاشياء

١ — مسلم (الايمان/٢٩٧) والترمذي (الجنة/١٦) و (التفسير/١٠) المسند ، (١٩) .

ويسكت عن تأويل المتشابهات. فإن قوما تأولوا بآرائهم فنفوا الصفات وعطلوها، وقوما حملوا على ظواهرها فوقعوا في التشبيه والتجسيم فصاروا معطِّلة ومشبِّهة. وحظ الراسخ الايمان بالمتشابهات وترك التأويل والوقف على قوله (وما يعلم تأويلَه الا اللهُ) كما هو مذهب السلف وهو اسلم من مذهب الخلف الذين يُؤوِّلون بما لا يلزم منه تشبيه ولا تعطيل .

قوله : « ولا يثبت قدم الاسلام الا على ظهر التسليم والاستسلام » .

لأن الاسم هو التسليم لله تعالى في كل ما ثبت من جهته ، فالمسلم من جعل الأشياء كلها سالمة لله لا شريك معه أحدا . وفي كلمة (ظهر) تشبيه فإنه لما اثبت للاسلام قدما وهو لا يثبت الا على شيء ، فاستعار للتسليم ظهرا حتى يثبت قدم الاسلام عليه ، لأن الاسلام هو الانقياد لله ولا يتحقق الا بالتسليم وترك الاعتراض على أحكامه وحكمه .

قوله : « ومن رام علم ما حظر عنة علمه ، ولم يقنع بالتسليم فهمه ، حجبه مرامه عن خالص التوحيد وصافي المعرفة وصحيح الايمان » .

معناه : ان كل من لم يقنع بالتسليم لما ثبت من الله ورسوله وطلب الوقوف على ما حظر اي حجب عن الخلق علمه كان مرامه، اي مطلوبه ، تحكما وعدولا عن موجب الاسلام، فيصير برأيه الباطل محجوبا عن خالص التوحيد وصافي المعرفة وصحيح الايمان ، فإن من عرف الله بالحكمة والكمال والربوبية، وعرف نفسه بالعجز والجهل والعبودية يبقى تحت التسليم والتمسك والرضا بما قضى الله ولا يطلب وجه الحكمة من الله بل يفوض العلم والحكمة الى العليم الحكيم ، فإنه ليس للعبد ان يطلب الاطلاع على اسرار المولى بل يجب عليه الانقياد له ، ﴿وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾

[ابراهيم/٢٧] و ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحكُمُ ما يُرِيدُ﴾ [المائدة/٢٣] اذ لو لم يرض بالتسليم ويطلب معرفة كنه حكمة الله ، وعقله قاصر عن ادراك ذلك يبقى مترددا بين التكذيب والتصديق . ولا إيمان مع التردد ، ولا إسلام مع التحكم .

وهذا قال في الكتاب : « فيتذبذب » اي يتردد. بين الكفر والايمان والتصديق والتكذيب والاقرار والانكار .

« موسوسا » ، بوساوس الشيطان والقاء الشبه عليه ، .

« تائها » أي حيران في تيه المعارف التي حارت فيها العقول .

« شاكا » فيما يجب عليه تسليمه .

« زائغا » أي مائلا عن الطريق الصواب .

« لا مؤمنا مصدقا » .

بجميع ما جاء من الله بالتسليم وتفويض العلم الى الله .

« ولا جاحدا مكذبا » .

لان التكذيب لا يتأتى مع الشك واستواء الطرفين . وقد اخبر الله تعالى ان اتباع ما تشابه زيغ حيث قال : ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم زَيْغٌ فَيَتَّبِعونَ ما تَشابَهَ مِنهُ﴾ [آل عمران/٧] .

فالحاصل أن الطحاوي رحمه الله اختار في المتشابه مذهب السلف ،

وهو ترك تأويله ، وهذا القول هو الراجح عند المحققين ، لأن اللفظ اذا كان له معنى راجح ثم دل دليل اقوى منه على ان ذلك الظاهر غير مراد علمنا ان المراد بعض مجازات تلك الحقيقة، وفي المجازات كثرة ، وترجيح البعض على البعض لا يكون الا بالمرجحات غير القطعية، فلا يفيد الا الظن ، والعمل في المسألة القطعية بالدليل الظني غير جائز، وفي التأويل يلزم ذلك .

مثلا : دل الدليل القطعي على أن الحقيقة من قوله تعالى : ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ [طه/٥] غير مراد، لأنه يمتنع كون الاله في مكان[1] ، فصرف اللفظ الى بعض تأويلاته لا يتصور بالدليل القطعي ، والقول بالظن في ذات الله تعالى وصفاته غير جائز . فتعين السكوت وترك التأويل وتفويض تأويله الى علم الله ، مع اعتقاد ان الظاهر غير مراد منه . وكذا حكم سائر الآيات المتشابهة .

قوله : « ولا يصح الايمان بالرؤية لأهل دار السلام لمن اعتبرها بوهم أو تأولها بفهم » .

أراد بدار السلام الجنة قال الله تعالى : ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ﴾ [يونس/٢٣] وفي تسميتها دار السلام وجهان : احدهما أن السلام اسم من أسماء الله تعالى ، فأضيفت اليه تعظيما لها .

و (ثانيهما) انها سميت بدار السلام لأن من دخلها سلم من الآفات[2] والعيوب والنقائص التي تحدث في دار الدنيا، فيكون معناها دار

---

١ ــ بل توجب الايمان بكونه تعالى استوى على عرشه كما ذكره سبحانه وتعالى في القرآن في سبع مواضع . فهو حق على حقيقته : لكن حقيقته تليق بجلال الله تعالى بلا مشابهة للمخلوقين كما قال الامام مالك رحمه الله تعالى « الاستواء معلوم ،والكيف مجهول . والايمان به واجب » وتقدم التعليق على نفي المكان (مراجع) .

٢ ــ من : ن : « عن الافات »

السلامة .

ويحتمل في وجه التسمية بها وجه آخر وهو أن الجنة لكثرة ما يسلمون فيها سميت بها ، قال الله تعالى : ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغواً وَلَا تَأْثِيماً ، إِلَّا قِيلًا سَلاماً سَلاماً﴾ [الواقعة/٢٦] وأيضا الملائكة يسلمون عليهم قال الله تعالى :﴿سَلَامٌ عَلَيْكُم طِبتُم﴾ [الزمر/٧٣] وإنما لا يصح الأيمان بالرؤية لمن اعتبر الرؤية بوهم لان الوهم انما يقع على موهوم هو جزئي ينطبع صورته في الحواس لان الوهم يدرك الجزئيات غير مجردة عن المواد وذلك في حق الله تعالى محال . فمن جوز الرؤية بهذا المعنى فقد ابطلها ولم يؤمن بها .

وانما لا يصح الايمان بالرؤية لمن تأولها بفهم ، لأن الفهم يكون بتأمل العقل بحصول ماهيته فيه ، وفهم المعنى الذي يضاف الى الربوبية لا سبيل للعقل الى دركه، اذ هو محار العقول تحيرت في بيداء الالوهية انظار العقل وآراؤه ، وأرتجت دون ادراكه طرق الفكر وأنحاؤه ، فلذلك قال : لا يصح الايمان بالرؤية إلا بترك التأويل وهماً وفهما ولزوم التسليم في كيفية الرؤية ، لأن الربوبية منزهة عن الماهية التي يدركها العقل والكيفية والكمية المدركة بالوهم[1] .

---

١ ـــ قال ابن أبي العز الحنفي في شرحه للطحاوية (ص ٢٣٠ ، ٢٣١) في بيان قول الطحاوي لا يصح الايمان بالرؤية لمن اعتبرها بوهم أو تأولها بفهم : أي بوهم أن الله تعالى يرى على صفة كذا فيتوهم تشبيها خلقه ، ثم بعد هذا التوهم إن أثبت ما توهمه من الوصف فهو مشبه ، وإن نفي الرؤية من أصلها لذلك الوهم فهو معطل بل الواجب دفع ذلك الوهم وحده . ولا يعم بنفيه الحق والباطل والى هذا أشار المؤلف (الطحاوي) رحمه الله بقوله : « ومن لم يتوق النفي والتشبيه ، زل ولم يصب التنزيه » وانما الكمال في اثبات الرؤية ونفي ادراك الرائي له ادراك احاطة كما في العلم ، فان نفي العلم به تعالى ليس بكمال ، وانما الكمال في اثبات العلم ونفي الاحاطة به علما . فهو سبحانه لا يحاط به رؤية كما لا يحاط به علما .
قال . وقوله « أو تأولها بفهم » أي أدعي أنه فهم لها تأويلا يخالف ظاهرها وما يفهم كل عربي من معناها .
وكلام ابن أبي العز هنا واضح صواب وهو مراد صاحب المتن ان شاء الله (المراجع)

قوله : « إلا بترك التأويل ولزوم التسليم ، وعليه دين الرسل » .

هذا استثناء عن قوله : لا يصح الايمان ، بمعنى لا يصح الايمان الا بترك التأويل في كيفية الرؤية ولزوم التسليم فيها . ولهذا لما أولت المعتزلة وقالوا بأن الرؤية لا تحصل الا بمقابلة الرائي والمرئي مع عدم البعد والقرب المفرطين واتصال الشعاع فقد احالوا الرؤية . فلو سكتوا عن التأويل وآمنوا بأصل الرؤية لما وقعوا في الانكار .

ودين الأنبياء ترك التأويل ولزوم التسليم ، قال الله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسلِمَ لِربِّ العَالَمِين﴾ [الانعام/٧١] وقال تعالى ، في قصة الخليل عليه السلام : ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبه أَسْلِم قَالَ أَسْلَمتُ لِرَبِّ العَالَمِين﴾ [البقرة/١٣١] فوجب علينا الاقتداء بهم والاهتداء بطريقهم ، فمن اعرض عن طريقهم فقد مال عن الحق بسفهه قال الله تعالى : ﴿وَمَنْ يَرغَبُ عِن مِلَّةِ إِبراهِيم إِلَّا مَن سَفِهَ نَفسَه﴾ [البقرة/١٣٠] والنبي عليه السلام أمر باتباع ملة ابراهيم بقوله تعالى ﴿ثُمَّ أَوْحَينَا إِلَيْكَ أن اتَّبِعْ مِلَّةَ ابْراهِيم حَنِيفاً﴾ [النحل/١٢٣] واكثر الانبياء دعوا الامم الى اتباع ملة ابراهيم عليه السلام .

قوله : « ومن لم يتوقَّ النفي والتشبيه زل ولم يصب التنزيه » .

من لم يجتنب نفي الرؤية التي اثبتها الشرع ولم يجتنب التشبيه الذي هو خلاف العقل والنقل زل عن الحق ووقع في الباطل ، ولم يصب التنزيه الذي يطلبه بنفي الرؤية واثبات التشبيه ، كما هو مذهب المعتزلة والمشبهة .

فالحاصل ان المعتزلة نفوا رؤية الله بزعم أنهم ينزهون ذات الله عن ان يرى

كما تُرى الأجسام . والمجسمة يثبتون رؤية الله كرؤية الأجسام والا يلزم منه التعطيل ، فإن مالا يكون محسوسا عندهم لا يكون موجودا فنزَّهوا الله تعالى عن التعطيل بإثبات التشبيه في الرؤية ، فأراد الطحاوي رحمه الله نفي هذين المذهبين فقال : من أراد التنزيه بنفي الرؤية ؛ وإثبات التشبيه فقد زل عن الطريق الحق ولم يصب التنزيه الذي طلبه فخاب سعيه .

واشار الى الدليل على هذا بقوله :

« فإن ربنا جل وعلا موصوف بصفات الوحدانية ، منعوت بنعوت الفردانية » .

وكونه مرئيا من صفات الكمال ، لان المجوِّز للرؤية كونُه موجودا ، وكل موجود لا تمتنع رؤيته . فلو قلنا بامتناع رؤيته يلزم منه نفي الوجود واثبات العدم، تعالى الله عن ذلك فالمعتزلة بنفي الرؤية لارادة التنزيه وقعوا في امر باطل ولم يصيبوا ما طلبوا .

وكذا كون صفاته غير مشابهة لصفات الأنام من الكمال ، فإنه الواحد القهار بديع السموات والارض ، كيف تكون صفات خلقه مشابهة لصفاته ؟ وفيما ذكره المجسمة من اثبات الجهة والمكان وتشبيه رؤيته كرؤية الأجسام إثبات نقص في ذاتهوصفاته ،تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا . فهم اخطؤوا فيما زعموا أنهم أرادوا بإثبات التشبيه نفي التعطيل .

والى نفى مذهب المشبهة أشار بقوله :

« ليس في معنى أحد من البرية » .

فلا يتوهم في رؤية الله مثل ما يتوهم في رؤية المخلوقات من المحاذاة واتصال الشعاع . إنما يراه أهل الجنة بغير احاطة ولا كيفية ، كما عرفوه في الدنيا بلا كيفية ولا إحاطة ، فإنه تعالى فرد منزه عن جميع جهات التركيب فإن كل مركب مفتقر الى اجزائه ، وكل مفتقر ممكن ، وكل ممكن حادث فلا يكون فردا قيوما ، فثبت أن الواجب الفرد الواحد في ذاته لا يكون في حيز ولا في جهة ولهذا قال :

« تعالى الله عز وجل عن الحدود والغايات ، والاركان والاعضاء والادوات » .

إذ (الحدُّ) وصف المحدود وهو المحصور المقهور تحت قهر الحد ، وهو قهار فلا يكون محدودا[1] . و (الغاية) عبارة عن النهاية ، و (الاركان) و (الأعضاء) صفات الاجسام ، و (الادوات) آلات الاجسام . والقديم سبحانه وتعالى منزه عن هذه الأوصاف كلها .

« ولا تحويه الجهات الست كسائر المبتدعات » .

لأنه تعالى نفي أن يكون مثلا لشيء لقوله : (ليس كمثله شيء) وفي اثبات الجهة والتحيز اثبات للمماثلة مع الاجسام ، وفي وصفه بالجهات قول

---

١ ــ أورد الشيخ ابن أبي العز هنا في شرح الطحاوية (٨٨) ما خلاصته : ان الحد له معنيان : احدهما تعني النعت والقول وهو أن يحده العباد فهذا منتف بلا منازعة بين أهل السنة والمعنى الثاني ما ينفصل به الشيء ويتميز به عن غيره والله تعالى غير حال في خالقه ولا قائم بهم ثم قال فالحد بهذا المعنى لا يجوز أن يكون فيه منازعة في نفس الأمر أصلا فإنه ليس وراء نفيه إلا نفي وجود الرب ونفي حقيقته (المراجع)

بإحاطتها له ، وفي القول بالمكان اثبات الحاجة الى المكان . وفي كل ذلك ايجاب حدوثه وإزالة قدمه . والجهات والأمكنة من اجزاء العالم وهو مستغن عن العالم وأجزائه . ولأن الجهات الست محدثة وهي أوصاف للعالم المحدث، والله قديم ، كان ولا مكان ولا حين ولا زمان ، كان الله ولم يكن معه شيء فالله تعالى في الأزل ما كان في الجهات لعدم الجهات ، فلو يصير في الجهات بعد إحداثها لتغير عما كان عليه وانتقل، والتغير والانتقال من امارات الحدوث تعالى الله عن ذلك[1] .

وقد تمسك المجسمة بظواهر النصوص .

ومذهب السلف : أن يصدقها ويفوض تأويلها الى الله تعالى مع التنزيه عن التشبيه ولا تشتغل بتأويلها بل نعتقد أن ما اراد الله تعالى بها حق ، وهذه الطريق اختارها الطحاوى رحمه الله .

ومذهب الخلف : أن نؤولها بما يليق بذات الله تعالى وصفاته ، ولا نقطع بأنه مراد الله لعدم دليل يوجب القطع على المراد . وقالوا المراد بقوله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف/٨٤] ثبوت الوهيته فيهما لا ثبوت ذاته ، كما يقال : فلان سلطان في العرب والعجم .

---

١ ـــ قال ابن أبي العز في شرح الطحاوية ص ٩١ :
لفظ « الجهة » قد يراد بها ما هو موجود وقد يراد به ما هو معدوم ومن المعلوم أنه لا موجود إلا الخالق والمخلوق ، فاذا أريد بالجهة أمر موجود غير الله تعالى كان مخلوقا ، والله تعالى لا يحصره شيء ولا يحيط به شيء من المخلوق ، وان أريد بالجهة أمر عدمي وهو ما فوق العالم فليس هناك إلا الله وحده فاذا قيل أنه في جهة بهذا الاعتبار فهو صحيح ومعناه أنه فوق العالم حيث انتهت المخلوقات فهو فوق الجميع عال عليه .. ولكن الجهة ليست أمرا وجوديا ، بل أمر اعتباري ، ولا شك أن الجهات لا نهاية لها ، وما لا يوجد فيما لا نهاية له فليس بموجود .. ومراده أن الله تعالى لا يحويه شيء ولا يحيط به شيء كما يكون لغيره من المخلوقات وأنه تعالى المحيط بكل شيء العالي عن كل شيء . (المراجع) .

وبقوله ﴿وَهُوَ القَاهِرُ فَوقَ عِبادِهِ﴾ [الانعام/٧٨] الفوقية من حيث القهر والمكانة ، لا من حيث العلو والمكان فإنه لا تمدح فيه . اذ الحارس قد يكون فوق السلطان في المكان[1].

وطريقة السلف اسلم من الوقوع في تأويل لا يكون مرادا ، وطريقة الخلف احكم[2] .

١ ــ قال ابن أبي العز في شرح الطحاوية (١٥٢) لو لم يتصف سبحانه بفوقية الذات مع أنه قائم بنفسه غير مخالط للعالم لكان متصفا بغير ذلك لأن القابل للشيء لا يخلو منه أو من ضده . وضد الفوقية السفول وهو مذموم على الاطلاق . وإذا كان وصف العلو والفوقية وصف كمال لا نقص فيه ولا يستلزم نقصا ولا يوجب محذورا ، ولا يخالف كتابا ولا سنة ولا جماعة ؛ فنفي حقيقته يكون عين الباطل ، والمحال الذي لا تأتي به شريعة الاسلام ، فكيف اذا كان لا يمكن الاقرار بوجوده تعالى وتصديق رسله والايمان بكتابه وبما جاء به رسوله إلا بذلك فكيف اذا انضم الى ذلك شهادة العقول السليمة والفطر المستقيمة والنصوص الواردة المتنوعة المحكمة على علو الله على خلقه وكونه فوق عباده التي تقرب من عشرين نوعا .. وكلام السلف في اثبات صفة العلو كثير جدا (المراجع) .

٢ ــ بل طريقة السلف أسلم وأعلم وأحكم .. وانظر كتاب ابن رجب المسمى (فضل علم السلف) لتتبين هذا حقا (المراجع) .

[القول في المعراج]

قوله « والمعراج حق، وقد أسري بالنبي عليه السلام » .

أما الاسراء من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى فثابت بالنص ، وهو قوله تعالى : ﴿سُبحانَ الذي أسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ المَسجِدِ الحَرَامِ إلى المَسْجِدِ الأَقْصى الذي بَارَكنَا حَولَه﴾ [الاسراء/١] وكان في ذلك ظهور المعجزة فانه قطع مسافة شهرين في لمحة .

« وعرج بشخصه في اليقظة الى السماء ثم الى حيث شاء الله تعالى من العلا واكرمه الله بما شاء واوحى اليه ما أوحى[١] » .

وهذا ثابت بالاحاديث الصحيحة دون الكتاب ، منها ما روى ابو قتادة ان النبي صلى الله عليه وسلم حدثهم عن ليلة اسرى به قال : (بينما أنا في الحطيم ــ وربما قال : في الحجر ــ مضطجع بين النائم واليقظان أتاني آت فشق ما بين هذه الى هذه ، فاستخرج قلبي ، ثم أتيت بطست من ذهب مملوء ايمانا فغسل قلبي فيه ثم حشي فأعيد . ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض يضع خطوه عند اقصى طَرْفه ، فحملت عليه فانطلق بي جبرائيل حتى اتى بي الى السماء الدنيا فاستفتح فقيل : من هذا ؟ قال

١ ــ في المتن عقبه : « ما كذب الفؤاد ما رأى ، فصلى الله عليه في الآخرة والأولى » .

جبريل ، قيل ومن معك ؟ قال : محمد عليه السلام ، قيل : وقد أرسل اليه ؟ قال : نعم ، قيل : مرحبا فنعم المجيء جاء . فلما خلصت فإذا آدم فقال : هذا آدم أبوك فسلم عليه ، فسلمت عليه فرد على السلام وقال : مرحبا بالابن الصالح والنبي الصالح ..)[1] . الى آخر حديث المعراج .

وقال بعضهم: المعراج ثابت بالكتاب ايضا وهو قوله تعالى : ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أو أدنى﴾ [النجم/٨] والصحيح أن هذا القرب كان مع جبريل ، ويدل عليه قوله تعالى ﴿وَهُوَ بِالأُفُقِ الأعلى﴾ [النجم/٧] وذلك أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم سأل جبريل أن يريه نفسه على صورته التي خلقه الله عليها فواعده ذلك بغار حراء فطلع له جبريل عليه السلام من المشرق فسد الافق الى المغرب ، ثم دَنَا فتدلى .

هذا من باب القلب أي ثم تدلى أي جبريل فدنا من محمد عليه السلام وكان منه قاب قوسين أي قدر مسافة قوسين أو ادنى . والمعنى أنه بعد ما رآه النبي عليه السلام على صورته هاله من عظمته فرده الله الى صورة آدمى حتى قرب منه للوحي وذلك قوله : ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ [النجم/١٠] أي عبد الله وهو محمد عليه السلام ما أوحى الله عز وجل بلسان جبريل .

[القول في الحوض والشفاعة]

قوله : « والحوض الذي اكرمه الله به غياثا لأمته حق . والشفاعة التي ادخرها لهم حق كما روي في الاخبار » .

أما الحوض فلما روى ابو ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم قلت : يا رسول الله ، ما آنية الحوض ؟ قال : (والذي نفسي بيده لآنيته اكثر من عدد نجوم السماء وكواكبها في الليلة المصحية المظلمة ، آنية الجنة من شرب منها لم يظمأ آخر ما عليه ، يشخب فيه ميزابان من الجنة ، طوله ما بين عمان إلى ايلة وماؤه أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل) رواه مسلم[1] .

وقال أنس : سئل النبي عليه السلام ما الكوثر ؟ قال : (نهر في الجنة ، أعطانيه الله في الجنة أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل) رواه الترمذي[2] . وانما قال غياثا لامته اذ الناس عند شدة عطشهم لدنو الشمس منهم وعظيم كربهم يردون عليه ، فيكون غياثا عند مساس الحاجة في كربات الموقف يوم القيامة ، فيكون كعطشان في البرية ورد على حوض ماؤه أبرد من الثلج .

---

1 ـ مسلم (الفضائل/٣٦) .

2 ـ البخاري (التفسير/١٠٨) ؛ مسلم (الصلاة/٥٣) وأبو داود (الصلاة/١٢٢ ، السنة/٢٣) والنسائي (الافتتاح/٢١) والمسند (٣/١٠٢)

وأما الشفاعة فلما روى البخاري ومسلم عن انس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (اذا كان يوم القيامة ماج الناس بعضهم إلى بعض فيأتون آدم فيقولون « اشفع لذريتك » فيقول « لست لها ولكن عليكم بابراهيم فإنه خليل الله ، فيأتون ابراهيم فيقول « لست لها ولكن عليكم بموسى فإنه كليم الله ، فيأتون موسى فيقول : « لست لها ولكن عليكم بعيسى فإنه روح الله وكلمته ، فيأتون عيسى فيقول : لست لها ولكن عليكم بمحمد ، فأوتى فأقول : أنا لها ، فانطلق فأستاذن على ربي فيؤذن لي فأقوم بين يديه أحمده بمحامد لا أقدر عليها الا أن يلهمنيها الله ، ثم أخر ساجدا لربي فيقول : يا محمد ارفع رأسك وقل تسمع وسل تعطه واشفع تشفع فأقول : يا رب أمتي أمتي ، فيقول : انطلق فمن كان في قلبه مثقال حبة من برة أو شعيرة من الايمان فاخرجه منها الى أن قال : فمن كان في قلبه أدنى من مثقال حبة من خردل من ايمان فأخرجه من النار ، فأفعل .[1] وروى جابر أن النبي عليه السلام قال : « شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي » رواه الترمذي .[2]

---

١ ـــ البخاري (الرقاق/٥١ ، التوحيد ١٩/ ، ٢٤ ، ٣٦) ومسلم (الايمان/٣٢٢) وابن ماجه (الزهد/٣٧) والمسند (٣/١١٦ ، ٤٤٤)

٢ ـــ الترمذي (القيامة/١١) وأبو داود (السنة/٢١)

[القول في الميثاق]

قوله : « والميثاق الذي أخذه الله من آدمَ ، صلوات الله عليه ، وذريتهِ حق » دل عليه قوله تعالى : ﴿وإذ أخَذَ رَبُّكَ من بني آدَمِ منْ ظُهورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُم وأشْهدهُم عَلى أنفُسِهِم ألستُ بربّكمْ ؟ قالوا : بلى﴾ [الاعراف /١٧٢]. ولكن العلماء اثبتوا أخذ الميثاق ولم يتكلموا في كيفيته لكونه من المتشابهات وأوجبوا حقيقته لورود الكتاب .

وذكر الشيخ أبو منصور في تأويله عن بعض أهل التأويل أن الله تعالى إنما قال : ﴿ألست بربكم ؟﴾، عندما خلق آدم عليه السلام ، وأخرج من يكون من ذريته الى يوم القيامة مثل الذر ، فعرض عليهم قوله : « ألست بربكم ، قالوا : بلى »

ثم اختلف هؤلاء فيما بينهم :

فمنهم من قال : أنه جعلهم بالمبلغ الذي يجرى على مثلهم قلم التكليف بأن جعل فيهم الحياة والعقل ، وهو قول الحسن البصري .

ومنهم من قال : عُرِضَ ذلك على الأرواح دون الأبدان .

وقال بعضهم : خلقهم صفين فقال : هؤلاء للجنة و لا أبالي ، وهؤلاء للنار ولا أبالي ، وعرض عليهم قوله « ألست بربكم » وقال بعضهم : عرض على الكل التوحيد فقال : « ألست بربكم » واعلمهم ما عليه أحوالهم في الدنيا من الفقر والغنى والأجل ونحو ذلك .

[القول في القدر]

قوله : « وقد علم الله تعالى فيما لم يزل عدد من يدخل الجنة ويدخل النار جملة واحدة فلا يزاد في ذلك العدد ولا ينقص منه وكذلك أفعالهم فيما علم منهم أن يفعلوا » .

إنما ذكر هذا اثباتا لسعة علم الله عز وجل وأزليته ، ولاثبات القضاء والقدر قطعا لمادة الشك في القضاء والقدر ، ودفعا لتلبيس أوهام القدرية حيث قالوا : كيف يعذب الله تعالى على ما قضاه وقدره ؟ فبين بقوله :

« وقد علم الله » الى آخره أن من يدخل الجنة يؤمن ويطيع عن اختيار ، فعلم عددهم وأن من يدخل النار يكفر ويخالف الأوامر عن اختيار لا عن جبر واضطرار، فيستحيل أن لا يعلم من خلقهم (ألا يعلم من خلق) [الملك /١٤] . ولما قضى الله وقدر على الطائفتين بذلك وحكم دل على علمه بعددهم ، إذ القضاء لا يكون بدون العلم ، وهو ﴿لا يعزُب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء﴾[سبأ/٣] فكيف لا يعلم بعدد من يدخل الجنة أو النار . وكذا أفعالهم بخلقه فيكون عالما بها .

قوله : « وكل ميسر لما خلق له » .

قال جابر رضي الله عنه : جاء سراقة بن مالك رضي الله عنه فقال : يا

رسول الله بين لنا ديننا كأنا خلقنا الآن فيم العمل اليوم ؟ فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير أم فيما يستقبل ؟ قال : « بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير » قال : ففيم العمل ؟ قال : (اعملوا فكل ميسر لما خلق له وكل عامل بعمله) رواه البخاري ومسلم[1] . وفي حديث آخر : (اعملوا وقاربوا وسددوا فكل ميسر لما خلق له [2])

قوله « والأعمال بالخواتيم » لما روى أبو هريرة ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : (ان الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة ثم يختم له عمله بعمل أهل النار ، وان الرجل ليعمل بعمل أهل النار ثم يختم له بعمل أهل الجنة) رواه مسلم[3] . وورد أيضا « ان الرجل ليعمل بعمل أهل النار فيدخل النار ، وان الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى يبقى بينه وبين النار باع أو ذراع فتدركه السعادة فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخل الجنة »[4] .

قوله : « والسعيد من سعد بقضاء الله ، والشقي من شقي بقضاء الله تعالى » .

لما روى ابن مسعود قال حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق والمصدوق « ان خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوما نُطفَة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك فيبعث الله له ملكا بأربع كلمات يكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أم سعيد ثم ينفخ فيه الروح »

---

١ ــ البخاري (القدر/٤ ، التفسير/٩ ، التوحيد/٥٤) ومسلم (القدر/٦ ، ٧ ، ٨) والترمذي (القدر/٣ ، التفسير/٩٢) والمسند (٤/٦٧)

٢ ــ البخاري (الرقاق/١٨) ومسلم (المنافقين/٧١ ، ٧٦) والترمذي (القدر/٨) (وفي كلها بلفظ « اعملوا وقاربوا وسددوا » وأما « فكل ميسر لما خلق له » قد سبق ذكره في الحديث قبل هذا .

٣ ــ مسلم (القدر/١١) والترمذي (القدر/٤ ، ٨) وابن ماجه (الوصايا/٣)

٤ ــ البخاري (التوحيد/٢٨) ومسلم (القدر/١) والترمذي (القدر/٤)

رواه البخاري ومسلم .[1]

قوله : « وأصل القدر سر الله تعالى في خلقه ، لم يطلع على ذلك ملك مقرب ولا نبي مرسل . والتعمق والنظر في ذلك ذريعة الخذلان ، وسلم الحرمان ، ودرجة الطغيان » .

القدر جعل كل ما هو واقع في العالم على ما هو عليه من خير وشر ونفع وضر ، وبيان ما يقع على سنن القضاء في كل زمان ومكان ، وهو تأويل الحكمة والعناية السابقة في الأزل »[2] قال الله تعالى : ﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾ [القمر /٤٩]، فتكون عقول البشر قاصرة عن الاحاطة بكنه الحكم الالهية ، والبصائر حاسرة عن ادراك الاسرار الربانية فيكون القدر من الغيب الذي استأثر الله بعلمه ، وجعله سرا مكتوما عن خلقه ، لم يظهر ذلك لملك مقرب ولا لنبي مرسل .

فيكون التعمق فيه وسيلة الخذلان ، لأن التعمق في طلب الوقوف على الحكمة التي كتمها الله تعالى عن الخلق يكون ناشئا عن الانكار والارتياب وهما من أوصاف النفاق ، فيصير التعمق فيه ذريعة الخذلان ، إذ المخذول هو الذي منع بسبب خلافه عن النصرة والظفر بالحق ، ثم باستمراره على النظر فيما منع عن النظر فيه يصير نظره سُلّماً للحرمان عن الثبات على الحق، ثم إذا كرر ولم يرجع عن طلبه ينتهي الى درجة الطغيان وهو المجاوزة عن الحد المجعول للعبد فإنه ليس للعبد المنازعة في أحكام مولاه ، ولا الطلب للاطلاع على أسراره . لذلك رتب هذه الكلمات على هذا النسق

---

١ ـ البخاري (الأنبياء/١ ، بدء الخلق/٦ ، القدر/١ ، التوحيد/٢٨) ومسلم (القدر/١) وأبو داود (السنة/١٧) والترمذي (القدر/٤) وابن ماجه (المقدمة/١)

٢ ـ س ، ل : الأزلية بدلا من « في الأزل » .

قوله « فالحذر كل الحذر من ذلك نظرا وفكرا ووسوسة » .

هذا مبالغة في التحذير عن طلب ما حجب عن العباد عمله .
« فان الله طوى علم القدر عن الأنام ، ونهاهم عن المرام كما قال الله تعالى ﴿لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون﴾ فمن سأل : لم فعل ؟ فقد رد حكم الكتاب ، ومن رد حكم الكتاب كان من الكافرين » .

وانما نهاهم عن الخوض في القدر لأنه أمر لا سبيل إلى معرفته .

قوله : « فهذا جملة ما يحتاج اليه من هو منور قلبه من أولياء الله تعالى » .

أي انما يعلم بهذا ويقف عليه ويعمل بمقتضاه من نور الله قلبه باليقين من أوليائه قال الله تعالى : ﴿أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه﴾ [الزمر /٢٢]

ثم ذكر لهذا تعليلا بقوله : « وهي درجة الراسخين في العلم لأن العلم علمان علم في الخلق موجود وعلم في الخلق مفقود ، فانكار العلم الموجود كفر وادعاء العلم المفقود كفر . ولا يثبت الايمان الا بقبول العلم الموجود وترك طلب العلم المفقود »

العلم الموجود في العالم والخلق هو ما علم بالدلائل الظاهرة والبراهين الباهرة كالعلم بالصانع بما نصب عليه من دلائل الوحدانية وقدمه وكمال علمه

١ ـــ س : « وهم درجة الراسخين في العلم » وهذه الجملة كلها ليست في : ل ، م .

وقدرته وحكمه وبراءته من سمات النقص وأمارات الحدث ، وجميع صفات الجلال والاكرام ، وكالعلم بجميع الأوامر والنواهي كما جاء به النبي عليه السلام من الشريعة الغراء الثابتة بالقرآن المعجز ومن بيان الحلال والحرام .

فهذا العلم كله موجود في الخلق فيكون انكاره كفرا .

وأما العلم المفقود فيهم فنحو العلم الذي أخفاه الله عن خلقه كالعلم بالغيب الذي استأثر بعلمه ، وكعلم القضاء والقدر ، وقيام الساعة كما قال الله تعالى : ﴿قل لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب الا الله﴾ [النمل /٦٥] وقال : ﴿لا يجليها لوقتها الا هو﴾[الاعراف /١٨٧] فادعاء هذا العلم وطلبه كفر أيضا لأنه دعوى المشاركة مع الله فيما استأثر به .

قوله : « ونؤمن باللوح والقلم وجميع ما فيه قد رقم ولو اجتمع الخلق كلهم على شيء كتبه الله فيه أنه كائن ليجعلوه غير كائن لم يقدروا عليه ولو اجتمعوا كلهم على ما لم يكتبه الله فيه ليجعلوه كائنا لم يقدروا عليه وجف القلم بما هو كائن الى يوم القيامة » .

أما اللوح فثابت بقوله تعالى : ﴿بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ﴾ [البروج /٢٢]، والقلم بقوله تعالى : ﴿ن والقلم وما يسطرون﴾ [القلم /١] . فيجب الايمان بهما .

وأما الايمان بجميع ما فيه قد رقم فبقوله تعالى : ﴿وكلَّ شيء أحصيناه في إمام مبين﴾ [يس /١٢] . قيل هو اللوح المحفوظ وبقوله تعالى : ﴿وكلّ صغير وكبير مُستطَر﴾ [القمر /٥٣] . وبما روى عن عبادة بن الصامت أنه قال لابنه عند الموت يا بني انك لن تجد حلاوة الايمان حتى تعلم أن ما

أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك ، فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ان أول ما خلق الله القلم قال له : اكتب ، فقال : يا رب وماذا أكتب ؟ قال : اكتب مقادير كل شيء إلى يوم القيامة » . أخرجه أبو داود والترمذي [1] . وعن عمرو بن العاص قال خرج علينا صلى الله عليه وسلم وفي يده كتابان فقال : « أتدرون ما هذان الكتابان ؟ قلنا : لا يا رسول الله الا أن تخبرنا فقال للذي في يده اليمنى [2] : هذا كتاب من رب العالمين فيه أسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم ثم أجمل على آخرهم فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبدا ، وقال للذي في شماله : هذا كتاب من رب العالمين فيه أسماء أهل النار وأسماء آبائهم وقبائلهم ثم أجمل على آخرهم فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبدا » قال أصحابه ففيم العمل يا رسول الله ان كان امرا قد فرغ منه ؟ فقال :

(سددوا وقاربوا فإن صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنة وإن عمل أي عمل كان) ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم بيده أي أشار بيده فنبذها ثم قال :

فرغ ربكم من العباد فريق في الجن وفريق في السعير[3] .

وباقي الألفاظ المذكورة في الكتاب كلها مروية عن النبي عليه السلام بعضها باللفظ وبعضها بالمعنى وهي مستغنية عن الشرح [4] .

قوله : « وعلى العبد أن يعلم أن الله تعالى سبق علمه في كل كائن من

---

١ ــ أبو داود (السنة/١٧) والترمذي (القدر/١٧) وابن ماجه (المقدمة/١٠)

٢ ــ في الحديث : في يده اليمنى . ووقع في س . ق « بيده » وفي م : « في يده اليمين » .

٣ ــ الترمذي (القدر/٨)) والمسند (٢/١٦٧) .

٤ ــ يشير الى ما تركه من المتن وهو قوله « وما أخطأ العبد م لم يكن ليصيبه وما أصابه لم يكن ليخطئه » .

خلقه ، فقدر ذلك بمشيئته تقديرا محكما مبرما ، ليس له ناقض ، ولا معقب ، ولا مزيل ، ولا مغير ، ولا محول ، ولا ناقص ولا زائد من خلقه في سماواته وأرضه » .

هذا تصريح باثبات أزلية علم الله تعالى ومشيئته ، وباثبات القضاء والقدر بما هو كائن من خلقه ، وبتقدير كل شيء على ما تقتضيه حكمته البالغة من حسن وقبح ، وخير وشر ، وطاعة ومعصية ، وغنى وفقر .

وفي قوله : « لا معقب » لا مؤخر لما حكم الى قوله « في سمائه وأرضه » اشارة الى أنه هو المنفرد بالحكم والتدبير ، والغالب في أمره ، لا يشاركه في ذلك أحد . وقد مر تحقيق البراهين على ذلك .

قوله « ولا يكون مكوّن الا بتكوينه ، والتكوين لا يكون الا حسنا جميلا » .

اعلم أن التكوين والتخليق والايجاد والإحداث والاختراع كلها اسماء مترادفة ، معناه : اخراج المعدوم من كتم العدم (١) الى ظهور الوجود . وإنما خص لفظ التكوين اقتداء بالسلف ، فانهم قالوا التكوين غير المكوّن وهو صفة أزلية قائمة بذات الله تعالى كجميع صفاته وهو تكوين للعالم ولكل جزء منه في وقت وجوده . وهذا لأن العالم حادث بإحداث الله ، ولو لم يكن الإحداثُ صفةً لله لما كان حادثا بإحداثه وينبغي أن يكون قديما (٢) ، اذ لو كان حادثا لاحتاج إلى تكوين آخر ، إذ التقدير أن جميع الحوادث

---

١ ــ في م : « اسم امعنم »

٢ ــ صفة الإحداث وهي الخلق قديمة لا أول لها ، لكن الإحداث المعين لحدث معين لا يلزم أن يكون كذلك ، فالله عز وجل يخلق ما شاء متى شاء لا يمتنع عليه شيء سبحانه تعالى وقد تقدم نظير هذا في مسألة الكلام (المراجع) .

محتاج إلى تكوين الله ، ويتسلسل أو ينتهي إلى تكوين قديم . ولأنه لو كان حادثا فاما أن حدث في ذات الله فيكون محلا للحوادث وهو محال ، وان حدث لا في ذاته فلا يكون التكوين صفة له ، لأن صفة الشيء لا تقوم بغيره ، إذ لو قامت بغيره لكان هو المكوّن دون الله .

وقول الأشعري بأن التكوين وما هو صفات الأفعال كالإحياء والاماتة حادث ، مردود . لأن العالم وجد بخطاب « كن » عنده أيضا وهو تكوين . وخطاب « كن » كلام أزلي قائم بذات الله بلا خلاف بيننا وبينه ، فَجَعْلُ التكوين حادثا تناقض في مذهبه .

وقولهم بأن التكوين هو المكون أيضا مردود . اذ التكوين صفة قائمة بذات الله ازلية بخلاف المكوَّن .

والقول باتحادهما كالقول بأن الضرب عين المضروب .

ولا يلزم من قدم التكوين قدم المكوَّن اذ وجود المكون موقوف على تعلق التكوين وقت الوجود ، فيكون ذاته قديمة وتعلقه حادثا كسائر الخطابات الأزلية . واذا ثبت أن التكوين صفة قائمة بذات الله لا يكون الا حسنا جميلا .

قوله : « فهذا من عقد الايمان وأصول المعرفة ، والاعتراف بوحدانيته وربوبيته كما قال الله عز وجل : ﴿وكان أمر الله قدرا مقدورا﴾ [الفرقان /٢] فهذا ـــ اي جميع ما سبق من العقائد المذكورة في القضاء والقدر وغيرهما ـــ من عقد الايمان ، لأنه من لم يعترف بسبق القضاء والقدر على مقتضى الحكمة البالغة . فقد يشك في علمه الأزلي وعنايته ، وبذلك يتطرق

الخلل الى الاعتقاد في الوهيته .

وفي إثبات التخليق لغير الله ابطال توحيد الصانع في أفعاله واثبات من يشاركه في ايجاد الحوادث ، وفيه ادخال الخلل في عقد الايمان نعوذ بالله من الخذلان .

قوله : « فويل لمن صار لله في القدر خصيما ، وأحضر للنظر فيه قلبا سقيما ، لقد التمس بوهمه في فحص الغيب سرا كتيما ، وعاد بما قال فيه افاكا أثيما » .

وهذا تأكيد وتصريح بذم من أنكر القدر ، وسماه خصيما لله، لأنه سبق بيانه بالدلائل القطيعة اثباتَ القدر، فمن ينكره فقد نازع الله فيما أثبته فصار خصيما له فيستحق الويل .

وانما سماه سقيم القلب لارتيابه فيما ثبت بالأدلة القطعية لمرض في قلبه ولطلبه الوقوف على مضمون سر كتمه الله عن خلقه .

وصرح بكونه افاكا اثيما اذ الافاك هو كثير الكذب والأثيم هو الفاجر كثير الاثم . وذلك بسبب انكار ما ثبت من الله بالادلة القطعية .

[القول في العرش والكرسي]

قوله : « والعرش والكرسي حق كما بين في كتابه ، وهو جل وعلا مستغن عن العرش وما دونه ، محيط بكل شيء وفوقه ، وقد أعجز عن الاحاطة به خلقه »

ذكر الله تعالى العرش والكرسي في كتابه العزيز ولم يبين ماهيتهما سوى أن قال : ﴿وسع كرسيه السموات والأرض﴾ [البقرة /٢٥٥] وقال : ﴿رب العرش العظيم﴾ [التوبة /١٢٩] . فذهب بعض أهل التأويل الى أن الكرسي كناية عن العلم . وقال بعضهم : ان العرش غير الكرسي . وقد ذكر الله تعالى العرش مقيدا بالحمل محتفا به الملائكة بقوله تعالى : ﴿الذين يحملون العرش ومن حوله﴾ [غافر /٧٥] فالعرش المقيد بالحمل قالوا : هو السرير المحمول المحفوف بالملائكة . وقال بعضهم أن العرش المذكور مطلقا يحتمل أن يراد به المُلْك .

والمذهب الصحيح عند علمائنا أن كل ما ثبت بالكتاب والسنة ولا يتعلق به العمل ، فانه لا يجب الاشتغال بتأويله بل يجب الاعتقاد بثبوته وحقيقة المراد به .

وانما قال «هو مستغن عن العرش وما دونه» نفيا لتوهم الحاجة إلى التمكن على العرش والتحيُّز في الجهة [١] كما قاله المجسمة فان العرش حادث

١ ــ انظر ما تقدم حين التعليق على مسألة التحيز والجهة (ص ٧٦)

بإحداثه . فقبل خلقه كان مستغنيا عن المكان فلو تمكن عليه بعده صار مفتقرا اليه ، وهو من امارات النقص تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

واراد باحاطته بكل شيء احاطته بالعلم ، لا كاحاطة الظرف بالمظروف لأن ذلك من خصائص الجسم والله منزه عنه . واراد بقوله « وفوقه » الفوقية من حيث المكانة والقهر والغلبة لا من حيث المكان كقوله تعالى : ﴿وهو القاهر فوق عباده﴾ [الانعام /١٨] . اذ لا تمدح في غير الفوقية بالقهر ، اذ الحارس قد يكون فوق السلطان من حيث المكان [١] .

قوله : « ونقول بأن الله اتخذ ابراهيم خليلا ، وكلم موسى تكليما » .

وذلك ثابت بنص القرآن .

وانما قال : « ايمانا وتصديقا وتسليما » .

لدفع توهم النصارى حيث قاسوا تسميتهم عيسى بالولد على اتخاذ ابراهيم خليلا ، وهذا قياس باطل ، لأن الولد لا يكون إلا من جنس الوالد ، والله متعال عن المجانسة مع البشر . فأما اتخاذ الخليل فلا يوجب المجانسة ، بل يوجب القرب والكرامة فافترقا . وانما أكد قوله « وكلم موسى تكليما » بالمصدر كما نطق به الكتاب ليعلم أنه كلمه حقيقة بكلام هو صفته دفعا لارادة المجاز .

قوله : « ونؤمن بالملائكة ، والنبيين ، والكتب المنزلة على المرسلين ، ونشهد أنهم كانوا على الحق المبين » .

---

١ ــ ينظر ما سبق تعليقه (ص ٧٦).

وهذا ثابت بقوله تعالى : ﴿آمنَ الرسول بِما أُنزِلَ إليهِ من رَبّه والمُؤمنون ، كلٌّ آمنَ بِاللّه ومَلائكتِه وكُتبِهِ ورُسلِه لا نُفرِّقُ بَينَ أحدٍ من رُسله﴾ [البقرة/٢٨٥].

فالايمان بالملائكة أن نؤمن بأنهم أشخاص روحانية في تركيب الحيوان يتزلون ويصعدون الى السماء بإذن الله ، لذتهم بذكر الله وأنسهم بعبادته ومعرفته ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

وأما الايمان بالنبيين فهو أن نؤمن بأن الله اصطفاهم لتبليغ رسالته وأكرمهم بالرسالة بينه وبين عباده والرسالة ليست بمكتسبة بل هي عطية يعطيها الله لمن شاء من عباده على ما قاله : ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾ [الأنعام/١٢٤] ، وهم معصومون عن المعاصي وهم أفضل من الملائكة وبعضهم أفضل من بعض .

وانما قدم الملائكة على الأنبياء في الذكر والايمان بهم لأن الله تعالى إنما يوحي الى الأنبياء بواسطة الملائكة، قال الله تعالى : ﴿نزل به الروح الأمين على قلبك﴾ [الشعراء/١٩٣] فلهذا السبب قدم ذكرهم .

وأما الايمان بالكتب فهو أن نؤمن بأنها وحي من الله الى رسله إمّا اسماعا منه بلا كيف ، أو بلاغا من الملك المنزل . ليس للنبي ولا للملك فيها تصرف في النظم ولا في المعنى .

ونشهد أن الأنبياء كانوا على الحق المبين الظاهر بالمعجزات الباهرة والدلائل القاهرة .

[القول في أهل القبلة]

قوله : « ونسمي أهل قبلتنا مؤمنين ما داموا بما جاء به النبي صلى الله عليه واله وسلم معترفين ، وله بكل ما قال وأخبر مصدقين » .

لقوله عليه السلام : (من صلى الى قبلتنا ، وأكل ذبيحتنا فهو منا)[1] فاذا كانوا معترفين بما جاء به النبي عليه السلام من الشرع والدين ، ومعتقدين التوحيد ، ومتمسكين بالشريعة نسميهم مؤمنين ونحكم عليهم بجميع أحكام المؤمنين ونراعي ظواهرهم ونكل ضمائرهم الى الله لقوله عليه السلام : (بعثت أتولى الظواهر والله يتولى السرائر) .

وانما قال ماداموا بما جاء به النبي صلى الله عليه واله وسلم معترفين ، لأن مجرد التوجه الى قبلتنا لا يدل على الايمان ما لم يصدق النبي فيما جاء به من الشريعة فان الغلاة من الرافضة الذين يدعون أن جبريل غلط في الوحي لمحمد فإن الله أرسله الى عليّ . وبعضهم قالوا : بأنه اله ، فهؤلاء وإن صلوا الى القبلة ليسوا بمؤمنين .

---

١ ـ البخاري (الصلاة/٢٨) والنسائي (الايمان/١٠)

[القول في النظر الى الله عز وجل]

قوله : « ولا نخوض في الله عز وجل ولا نماري في الدين » .

معناه : ولا نتكلم في ذات الله وصفاته بمحض العقل من غير اتباع ما نطق به الكتاب والسنة ، اذ الأصل في أسماء الله وصفاته التوقيف . ولا نخوض في الفكر في ذاته فإنه يحير الأفكار فربما يؤدي الى الانكار ، بل يتفكر في أفعاله وصنعه . فإن العقل قاصر عن ادراك كنه كبريائه . فإن الملائكة مع تجردهم عن دنس العلائق النفسانية اعترفوا بالقصور ، وقالوا :

ما عرفناك حق معرفتك . فكيف البشر المتعلق بالعلائق والغواشي الغريبة المانعة عن خلوص الادراك ؟ فالخوض فيه ربما يفضي الى القول بما هو منزه عنه ، فالأولى ترك الخوض فيه .

ولا نماري في الدين ، أي : لا نخاصم أهل الحق بإلقاء شبهات أهل الأهواء عليهم التماسا لافترائهم وميلهم عن الحق . وقد قال النبي عليه السلام : (من ترك المراء وهو مبطل بني له بيت في ربض الجنة ، ومن تركه وهو محق بني له في وسطها ، ومن حسن خلقه بني له في أعلاها) أخرجه الترمذي[٢] .

---

٢ ــ الترمذي (نجر/٥٨)

وروى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خرج ونحن نتنازع في القدر فغضب حتى احمر وجهه فقال : (أبهذا أمرتم أم بهذا أرسلت اليكم ؟ إنما هلك من كان قبلكم بكثرة التنازع في أمر دينهم واختلافهم على أنبيائهم ، عزمت عليكم أن لا تنازعوا فيه) . أخرجه الترمذي وأبو داود[1] .

---

١ — الترمذي (تفسير ١)

[القول في القرآن]

قوله : « ولا نجادل في القرآن » .

بأنه مخلوق حادث ، أو من جنس الحروف والأصوات[1] ، بل نؤمن بأنه مراد الله وكلامه . ولا نجادل في الآيات المتشابهة ، ولا نؤوّل بتأويلات أهل الزيغ ابتغاء الفتنة ، ولا نجادل في وجوه القرآت الثابتة بل نقرأه بكل ما ثبت .

قوله : « ونعلم أنه» أي القرآن « كلام رب العالمين نزل به الروح الأمين » .

وهذا رد لكلام الملاحدة أن القرآن وجد بإلهام طبيعي لصفاء جوهره ، وأن النبي عليه السلام كان يصوره في نفسه فينظمه قرآنا . والدليل على بطلان ذلك قوله تعالى : ﴿تنزيل من رب العالمين ، نزل به الروح الأمين﴾ [الشعراء/١٩٣] ، يعني جبريل وقوله : ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا﴾ [النساء/٨٢] ، وقوله تعالى : ﴿وإن كنتم في ريب مما نزّلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله﴾ [البقرة/٢٣] .

قوله : «فعلّمه محمدا» أي علم جبريل محمداً « سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم وعلى آله أجمعين» القرآنَ المنزل اليه لقوله تعالى : ﴿علمه

---

١ ـ تقدم بيان مسألة الحروف والأصوات في تعليق متقدم (ص ٦٣)

شديد القوى﴾ [النجم/٥] وفي التصريح بتعليم جبريل إياه إبطال لتوهم الملاحدة أنه كان يصوره في نفسه لأن طبيعته وغريزته كانت تقتضي ذلك، أو كان يلهمه جبريل ثم يأتي هو بكلام مرتب. والدليل على بطلان هذا أن الله تعالى صرح بالتعليم والتلقين. والتعليم من الملَك لا يكون إلا بأن يسمع منه الكلام فيحفظه ثم يبلغه الى المخاطبين.

قوله: « وكلام الله تعالى لا يساويه شيء من كلام المخلوقين ».

لأن كلامه تعالى صفة قائمة بذاته، أزلي جامع للطائف يعجز عن اتيان مثل أقصر سورة منه الانس والجن، فكيف يكون كلام البشر الذي هو حادث ركيك بالنسبة اليه مساويا له؟

قوله: « ولا نقول بخلقه ».

هذا رد لقول المعتزلة القائلين بخلق القرآن. والدليل على بطلان مذهبهم أن كلام الله صفة قائمة بذاته، فلو كان مخلوقا يلزم قيام الحادث بذاته تعالى وهو منزه عن ذلك، وقد مر تحقيق ذلك فيما قبل.

قوله: « ولا نخالف جماعة المسلمين ».

لقوله صلى الله عليه وسلم: (من خرج عن الجماعة فقد خلع ربقة الاسلام عن عنقه)[١]. والاجماع حجة من حجج الشرع فخلافه زيغ وضلال. والنبي عليه السلام حث الأمة على التمسك بالجماعة حيث قال:

---

١ ـ أبو داود (سنة: ٣٠)

(عليكم بالسواد الأعظم)[1] ، وقال : (لا تجتمع أمتي على الضلالة) ، و (ما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن) .

---

١ ــ ابن ماجه : الفتن/٨ والمسند (١/٣٨٧)

[القـول في أهـل القبلـة]

قوله : « ولا نكفر أحداً من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله » .

لقوله عليه السلام : (لا تكفروا أهل قبلتكم) . المراد بأهل القبلة هم الذين جمعوا بين الصلاة الى الكعبة والتصديق بجميع ما جاء به النبي عليه السلام من الشريعة . ولهذا قال المصنف فيما سبق : « ونسمي أهل قبلتنا مسلمين ما داموا بما جاء به النبي عليه السلام معترفين » . وفيه اشارة الى أن الغلاة من الروافض وان صلوا الى القبلة ليسوا بداخلين في هذا .

وانما قال هذا ردا على الخوارج الذين قالوا بأن المسلم اذا ارتكب كبيرة يخرج من الايمان ويدخل في الكفر ، وعلى المعتزلة الذين قالوا يخرج من الايمان ولا يدخل في الكفر ويكون بين المنزلتين .

والدليل على بطلان هذا أن المؤمن لا يكفر بالذنب لقوله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا توبوا الى الله﴾ [التحريم/٨] أمر المؤمنين المذنبين بالتوبة اذ التوبة عبارة عن الرجوع الى الله بموافقة أمره بعد المخالفة . وقد سمي صاحب الذنب مؤمنا فدل على أنه لا يخرج عن الايمان بالذنب ولقوله تعالى ﴿وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا﴾ [الحجرات/٩] ، سماهم مؤمنين مع أن احدى الطائفتين باغية مرتكبة للكبيرة ، ولقوله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى﴾ [البقرة/١٧٨] ، فسمى قاتل النفس عمدا

مؤمنا مع ارتكابه الكبيرة ثم قال : ﴿فمن عُفِيَ له من أخيه شيء﴾ سماه أخا بأخوة الاسلام . فلو صار كافرا بالقتل لما جاز تسميته بالأخ . ولأن الايمان في الحقيقة هو التصديق بالقلب . والاقرار دليل عليه[1] ومحل المعصية الجوارح ، فلا تضاد بينهما اذ اتحاد المحل شرط له . فما دام التصديق باقيا يكون الايمان باقيا . ولأن الأعمال الصالحة غير داخلة في الايمان ، فلا ينتفي الايمان بانتفائها .

وهذا اذا ارتكب الكبيرة ولم يستحلها أما لو استحلها فهو كافر ، لانكاره ما حرم الله تعالى بالدلائل القطعية . قال الله تعالى : ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾ . [المائدة /٤٤] .

قوله : « ولا نقول : لا يضر مع الايمان ذنب لمن عمله » .

هذا رد لمذهب المرجئة ، فإنهم بمقابلة الخوارج حيث قالوا : لا يضر الذنب مع الايمان ، والخوارج قالوا : لا ينفع الايمان مع الذنب . والدليل على ابطال مذهب المرجئة أن النصوص والأحاديث الصحيحة قد دلت على تعذيب أصحاب الكبائر بقدر ذنوبهم ، فدلت على أن الذنوب قد تضر مع الايمان .

قوله : « ونرجو للمحسنين من المؤمنين » .

---

١ ــ اختلف أهل السنة هل الايمان تصديق وقول وعمل يزيد وينقص ، أم هو التصديق فقط والقول والعمل دليل عليه (انظر شرح الطحاوية لابن أبي العز ص ٣٦٢) ويرجح قول من قال هو تصديق وقول وعمل يزيد وينقص ما ورد من مثل قوله تعالى « فأما الذين امنوا فزادتهم إيمانا » وقوله « وما كان الله ليضيع إيمانكم » أي صلاتكم . (وهو كما قال ابن أبي العز خلاف لفظي لا يترتب عليه فساد) ويأتي في كلام الشارح (المراجع) .

أي نرجو الثواب في الآخرة لمن عمل الحسنات من المؤمنين بحكم الوعد . وانما قال بلفظ (الرجاء) لأن العمل الصالح ليس بموجب للجزاء بل الجزاء بفضل الله ورحمته . قال النبي عليه السلام : (لن يَدخُل أَحَدُكمْ الجَنَّةَ بِعمَلِه ، قيل : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته)[1] . ولأن العمل الصالح إنما يكون وسيلة للثواب اذا كان لوجه الله ومقبولا عنده وذلك غير معلوم فلا نتيقن به بل نرجو الفضل من الله .

قوله : «ولا نشهد لهم بالجنة ولا نأمن عليهم » .

أي لا نأمن على المؤمنين ما يحبط عملهم من كفر أو نفاق ، أو ما يحبط ثواب عملهم من عجب ورياء وسمعة ، لأنهم غير معصومين عن ذلك فما داموا في الحياة لا يتحقق الأمن من ذلك اذ الاعتبار للخواتيم وقصة بلعم بن باعورا مشهورة .

قوله : « ونستغفر لمسيئهم » .

أي نطلب من الله المغفرة للمذنبين من أهل الايمان ، لأنا أمرنا باستغفار بعضنا لبعض . قال الله تعالى : ﴿استغفروا ربكم انه كان غفارا﴾ [نوح/١٠] والملائكة والأنبياء أمروا بالاستغفار للمؤمنين فوجب الاقتداء بهم .

قوله : « ونخاف عليهم » .

---

١ ـ البخاري (الرقاق ٨ : مرضى ١٩) ومسلم (المنافقين ٧١ ، ٧٣ ، ٧٥ ، ٧٦)

أي نخاف على المذنبين من أهل الايمان العقاب ، لأن الله تعالى أوعد بالعقاب بمخالفة أوامره ، فنستغفر لهم كما نستغفر لأنفسنا ، ونخاف عليهم كما نخاف على أنفسنا . قال النبي عليه السلام : (المؤمنون كالجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر)(١) .

قوله : « ولا نقنطهم » .

أي لا نؤيسهم من رحمة الله مع ذنبهم ، اذ القنوط من رحمة الله من أوصاف الضالين . قال الله تعالى : ﴿ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون﴾ [الحجر/٥٦] .

قوله : « والأمن والأياس ينقلان عن الملة » .

يعني الأمن من مكر الله ، واليأس من رحمة الله ، ينقلان المؤمن عن ملة الاسلام الى الكفر ، لأن الله تعالى وعد بالرحمة وأوعد بالعذاب وهو قادر عليهما . ففي الأمن عما أوعد ظن العجز عن العقوبة، وفي الاياس عن الرحمة ظن العجز عن المغفرة، وكل واحد منهما ناقل عن ملة الاسلام . وقد قال الله تعالى : ﴿أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون﴾ [الأعراف/٩٩] وقال تعالى ﴿إنه لا ييأس من رَوْح الله إلا القوم الكافرون﴾ [يوسف/٨٧] .

قوله : « وسبيل الحق بينهما لأهل القبلة » .

أي بين الأمن واليأس وهو الوقوف بين الخوف والرجاء . اذ هو حقيقة

---

(١) ـ مسلم (البر/٦٧) .

العبودية . قال الله تعالى : ﴿يدعونَ ربّهم خَوفاً وطَعماً﴾ [السجدة/١٦] ، أي خوفا من عقابه وطمعا في رحمته وثوابه . وقال النبي عليه السلام : (لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا)[1] .

وفيه اشارة الى رد ما ذهب اليه الخوارج والمرجئة ، فإن الخوارج أيسوا من ثواب الله بارتكاب الكبيرة ، والمرجئة أمنوا من العقاب بارتكابها فهما في طرفي التفريط والافراط ، وخير الأمور أوسطها ، وهو مذهب أهل السنة والجماعة .

قوله : « ولا يخرج العبد من الايمان إلا بجحود ما أدخله فيه » . لأن الكفر والايمان متضادان فلا يبطل أحدهما إلا بإتيان الآخر . والمؤمن انما صار مؤمنا ودخل في الايمان بالتصديق والاقرار فلا يصير كافرا وخارجا عن الايمان إلا بالجحود والتكذيب . فاذا ارتكب كبيرة مع بقاء اعتقاد الجزم والتصديق والايمان لا يخرج عن الايمان ، فلا يحكم بكفر أحد حتى يعلم منه جحود ما صار به مؤمنا .

---

١ ــ كشف الخفاء ١/٢٦٦ (في اللآلىء : هذا مأثور عن بعض السلف . وفي المقاصد : لا أعرفه في المرفوع وقد يؤثر عن بعض السلف)

[القول في الايمان]

قوله : « والايمان هو الاقرار باللسان والتصديق بالجنان » .

وهو القلب . فالحاصل أن المشايخ قد اختلفوا في أن الايمان في الحقيقة عبارة عن ماذا ؟ فقال الشيخ أبو منصور الماتريدي : الايمان في الحقيقة :

التصديق بالقلب ولكن لما كان ما في القلب أمرا باطنا لا يمكن الوقوف عليه ، جعل الشارع الاقرار دليلا عليه وشرطا لاجراء الأحكام في الدنيا ، حتى لو صدق بقلبه ولم يقر بلسانه يكون مؤمنا عند الله ، لأنه تعالى عالم بما في القلوب ، فيعلم بتصديقه ، لا في أحكام الدنيا لعدم الاقرار الذي يدل عليه في حقنا ونحن نحكم بالظواهر والله يتولى السرائر . وهذا القول مروي عن أبي حنيفة في كتاب « العالم والمتعلم » .

وقال شمس الأئمة[1] وفخر الاسلام[2] : الاقرار باللسان ركن الايمان كالتصديق إلا أنه ركن زائد يحتمل السقوط بعذر الاكراه . والتصديق ركن أصلي لا يحتمل السقوط بحال . فمن صدق بقلبه ولم يقر بلسانه من غير عذر لم يكن مؤمنا . وإليه يشير كلام المصنف رحمه الله حيث قال : هو

---

١ ــ شمس الأئمة : هبة الله بن محمد بن يحيى الشيرازي الأصل . توفي بعد سنة ٥٦٠ هـ . (معجم المؤلفين ١٣/١٤٥)

٢ ــ فخر الاسلام : علي بن محمد بن الحسين بن عبد الكريم بن عيسى بن مجاهد البزدوي ، أبو الحسن . مات سنة ٤٨٢ هـ . (اللكنوي . الفوائد ١٢٤)

الاقرار باللسان والتصديق بالجنان .

والأعمال ليست بداخلة في حقيقة الايمان كما هو مذهب بعض العلماء حيث قالوا : الايمان هو التصديق بالجنان والاقرار باللسان والعمل بالأركان وهو محكي عن الشافعي وأحمد وأهل الظاهر . قال الامام فخر الدين الرازي :(1) الأعمال خارجة عن مسمى الايمان .

والقائلون بأن الأعمال داخلة في الايمان اختلفوا . فقال الشافعي :

الفسق لا يخرج الفاسق عن الايمان . وهذا في غاية الاشكال ، لأنه اذا كان الايمان اسما لمجموع التصديق والاقرار والأعمال فينتفي بانتفاء جزئه فوجب أن لا يبقى مؤمنا بدون الأعمال .

لنا أن الأعمال عطفت على الايمان في مواطن كثيرة في القرآن . قال الله تعالى : ﴿إِنَّ الذين آمنوا وعمِلو الصَّالِحات﴾ [مريم/٩٦] ، وقال تعالى :

﴿الذين يُؤمِنونَ بِالغَيب ويُقيمونَ الصَّلاةَ﴾ [البقرة/٢] وقال تعالى : ﴿إنما يَعْمُرُ مساجدَ اللّه من آمنَ بِاللّه وَاليَومِ الآخرِ وأقامَ الصلاةِ﴾ [التوبة/٥٢] .

والمعطوف غير المعطوف عليه . ولأن الايمان شرط لصحة الأعمال ، قال الله تعالى : ﴿ومَنْ يعمل منَ الصَّالحاتِ وهو مُؤمنٌ﴾ [طه/١١٢] ، والشرط غير المشروط ولأن جبريل لما سأل النبي عليه السلام عن الايمان لم يجب عنه إلا بالتصديق بأشياء مذكورة في ذلك الحديث حيث قال : (الايمان أن تؤمن

---

١ ـ فخر الدين الرازي : محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين بن علي التيمي البكري ، الطبرستاني ، الشافعي . مات سنة ٦٠٦ هـ . (معجم المؤلفين ، ٧٩/١١ ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ٦٠٠/١ ـ ٦٠٢ ، السبكي ، طبقات الشافعية ٣٥/٥)

بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره) ثم قال : (هذا جبريل أتاكم ليعلمكم معالم دينكم)(١) فلو كان الايمان عبارة عن الأعمال مع التصديق والاقرار لبينه النبي عليه السلام .(٢)

قوله : «وان جميع ما أنزل الله تعالى في القرآن وجميع ما صح عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الشرع والبيان كله حق » .

لأنه لما ثبت أن القرآن منزل من عند الله وأن الرسول صادق ثبت أن جميع ما في القرآن وما صح من الأحاديث عن النبي عليه السلام في بيان الشرع حق كله ، لأنه معصوم عن الكذب والباطل .

وانما ذكر هذا لأن الايمان التفصيلي بكل واحد واحد مما جاء به النبي عليه السلام لا يمكن ، فيجب الايمان الاجمالي ليكون ايمانا بكل ما يجب الايمان به ، اذ لو أوجبنا عليه التفصيل لعجز عنه وقد يترك شيئا يجب الايمان به ، اذ لا يمكن أن يحيط المكلف بتفصيل جميع ما في الشرع من الأحكام .

قوله : « والايمان واحد ، وأهله في أصله سواء ، والتفاضل بينهم بالخشية(٣) والتقى ومخالفة الهوى وملازمة الأولى » .

إنما قال : الايمان واحد ، لأن الايمان عبارة عن التصديق بجميع ماجاء به الرسول عليه السلام ، ولا تفاوت في ذلك بين المكلفين .

---

(١) ــ مسلم (الايمان/١٠) والترمذي (الايمان/٤) وابن ماجه (المقدمة/٩)

(٢) ــ في الأصل « بالحقيقة » والتصويب من شرح الطحاوية لابن أبي العز (ص ٣٧٣)

(٣) ــ الأدلة على كون الأعمال داخلة في مسمى الايمان . كثيرة منها قوله تعالى (وما كان الله ليضيع ايمانكم) أي صلاتكم . وانظر قول الطحاوي فيما يأتي (ص ١٤١) ان حب الصحابة دين وإيمان (المراجع) .

وإنما قال : أهله في أصل الايمان سواء ، يعني أن ايمان أهل السماء من الملائكة وأهل الأرض من الانس والجن في الأصل واحد ، وهو التصديق بوحدانية الله واثبات صفاته الذاتية والافعالية ، وبكل ما يجب الايمان به جملة ، وجميع المكلفين في هذا على السواء .

والى هذا اشار أبو حنيفة رحمه الله في كتاب « العالم والمتعلم » حيث قال : ان ايماننا مثل ايمان الملائكة ، لأنا آمنا بوحدانية الله تعالى وربوبيته وما جاء من عنده ، بمثل ما أقرت به الملائكة ، وصدقت به الأنبياء والرسل ، فمن هاهنا ايماننا مثل إيمانهم .[1] ولهم بعد ذلك علينا فضائل في الثواب على الايمان ، وجميع العبادات وهو زائد على أصول الايمان . لأن الله تعالى كما فضلهم بالنبوة على الناس ، كذلك فضل عبادتهم وثوابهم ، وهم أمناء الرحمن ، لا يدانيهم أحد من الناس في عبادتهم وخوفهم .

وهذا يدل على أن أصل الايمان لا يزيد ولا ينقص ، لأن أصله هو التصديق بجميع ما يجب الايمان به وذلك لا يحتمل الزيادة والنقصان .

والزيادة الواردة في الايمان في قوله تعالى : ﴿زَادَتْهُمْ إِيمَاناً﴾ [الأنفال/٢] وفي قوله : ﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً﴾ [الفتح/٤] وغيرها محمولة على الزيادة في ثمرات الإيمان بالأعمال الصالحة واشراق نوره وصفاته . قال الله تعالى : ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ [الزمر/٢٢] لا على أن المراد به الزيادة في أصل الايمان ، عملا بالدليلين . وإليه اشار بقوله : انما التفاضل بينهم والتفاوت في مراتبهم في أوصاف الايمان ، من الاستنارة والضياء وزيادة اليقين ، والتمسك بالتقوى ، ومخالفة هوى النفس الأمارة

---

(١) ـــ نظر التعليق المتقدم ص (١٠٨) والخلاف في هذه المسألة الذي ذكره الشارح ص (١٠٧)

بالسوء ، وملازمة ما هو الأولى في القول والفعل .

قوله : »والمُؤمِنُونَ كُلُّهُمْ أولياءُ الرَّحمن وَأكْرمُهُم عِنْدَ اللّه أطْوعُهُم وأتْبعُهُم لِلقرآن .

والدليل عليه قوله تعالى : ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة ٢/٢٥٧] والولي فعيل بمعنى فاعل ، أي الله متولي أمورهم وناصرهم ويقرب منهم بالعون والنصرة والتوفيق على الطاعات والهداية الى المعرفة . والدليل على أن أكرمهم عند الله أطوعهم قوله تعالى : ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الكهف/١٠٨] ، وقوله عليه السلام : (لا فضل لعربي على عجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى) واتباع القرآن ، دليل على الطاعة والتقوى .

قوله : «وأصل الإيمان هو الإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخرة والبعث بعد الموت والقدر خيره وشره وحلوه ومره من الله تعالى ونحن مؤمنون بذلك كله لا نفرق بين أحد من رسله نصدقهم كلهم فيما جاؤوا به » .

لما ذكر أولا بأن أهل الايمان في أصله سواء شرع في بيان أصل الإيمان فقال : وأصل الإيمان هو الإيمان بالله .. إلى آخره ، ففصل بعد ذكره بالاجمال . والأصل فيه آية ﴿آمَنَ الرَّسُولُ ..﴾ [البقرة/٢٨٥] وحديث جبريل حين سأل النبي عليه الصلاة والسلام عن الايمان ، وقد مر ذكره .

[القول في أهل الكبائر]

قوله : « وأهل الكبائر في النار لا يخلدون اذا ماتوا ، وهم موحدون وان لم يكونوا تائبين بعد أن لقوا الله سبحانه عارفين » .

المسلم اذا ارتكب كبيرة ومات قبل التوبة وهو موحد لم يشرك بالله فهو وإن دخل في النار لا يخلد فيها ، بل مآل أمره أن يخرج من النار ويدخل الجنة .

وفيه رد لقول المعتزلة القائلين بأنه يخلد في النار أبدا ولا يخرج منها . وهذا بناء على أن مرتكب الكبيرة لا يخرج عن الايمان عندنا . وعندهم يخرج .

فاذا لم يتب يكون عندهم كافرا فيخلد في النار . وقد مر التحقيق فيه .

وعندنا : لما كان مؤمنا لا يخلد في النار ويكون عاقبة أمره الجنة . قال الله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ [الكهف/١٠٨] وهذا الشخص مؤمن ، وقد عمل الصالحات من الصيام والصلوات ، لكنه ارتكب الكبيرة لغلبة الشهوات مع الاعتقاد بالحرمة وخوف العقوبة ، فيكون عاقبته الجنة ، ولأنه تعالى قال : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء/٤٨] فرق بين الشرك وما دونه ، وأخبر أن الشرك غير مغفور ، وأطمع في مغفرة ما

دونه ، حيث علق بالمشيئة وإنما يتعلق بالمشيئة جائز الوجود لا ممتنع الوجود ، فجاز أن يغفر الله الكبيرة فلا يدخله النار ، أو يدخله ثم يخرجه منها برحمته . وقد قال الله تعالى : ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد/٦] أي حال ظلمهم . وذلك يدل على جواز المغفرة قبل التوبة ، ولأن توحيد ساعة يهدم كفر مائة سنة ، فكيف لا يهدم معصية ساعة ، ولكن ثبت تعذيب أهل الكبائر بالنصوص فلا أقل من رجاء العفو . وقال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر/٥٣] ، ولأنه تعالى قال : ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة/٧ــ٨] . فمن آمن وعمل الصالحات لكنه ارتكب المعاصي لو لم يخرج من النار لما رأى ثواب الايمان والأعمال . ولأنه لا بد من الجمع بين العمومين ، فإما أن يقال صاحب الكبيرة يدخل الجنة بإيمانه ثم يدخل النار بمعاصيه وهو باطل ، أو يدخل النار أولا بكبيرته ثم ينقل إلى الجنة وهو الحق .

قوله : « وهم » أي أهل الكبائر « في مشيئته وحكمه إن شاء غفر لهم وعفا عنهم بفضله » ، كما ذكره في كتابه ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء/٤٨] يعني لا يقطع بعقوبة أهل الكبائر ولا بثوابهم، بل حكمهم أنهم اذا ماتوا قبل التوبة في مشيئة الله ان شاء عفا عنهم بفضله ورحمته أو شفاعة نبي أو ولي من عباده . وإن شاء عذبهم بقدر جنايتهم ثم أدخلهم الجنة .

وفيه رد لقول الخوارج والمعتزلة القائلين بأن تعذيبهم قطعي لا يجوز العفو عنهم ان ماتوا بلا توبة ، ورد لقول المرجئة الذين يزعمون أن المؤمن لا يدخل النار أصلا وان أتى بجميع المعاصي ومات قبل التوبة ، وإلى رد القول الأول اشار بقوله :

إن شاء غفر لهم والى رد القول الثاني [أشار] بقوله :

« وإن شاء عذبهم في النار بعدله ثم يخرجهم منها برحمته وشفاعة الشافعين من أهل طاعته ويبعثهم الى جنته ذلك بأن الله تعالى مولى أهل معرفته ولم يجعلهم في الدارين » أي دار الدنيا ودار الآخرة « كأهل نكرته » أي أهل انكار المعرفة والايمان « الذين خابوا من هدايته ولم ينالوا من كرامته » .

وقد دلت النصوص على انتفاء التسوية بين أهل المعرفة ، وهم المسلمون ، وبين أهل الانكار ، وهم الكافرون ، في الآخرة قال الله تعالى ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الجاثية/٢١] وقال تعالى : ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ [ص/٢٨] . ولأن الحكمة تقتضي تفضيل أهل المعرفة على أهل النكرة ، فلو خلدا جميعا في النار[1] بطلت التفرقة وثبتت التسوية ، ويلزم من ذلك أن لا ينفع الايمان والمعرفة .

والدليل على تعذيب أهل الكبائر ثم اخراجهم من النار الى الجنة بشفاعة الشافعين قول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : (أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون ، ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم فأماتتهم اماتة ، حتى اذا صاروا فحما أذن بالشفاعة فجيء بهم ، ضبائر ضبائر ، فبثوا على أنهار الجنة ، ثم قيل يا أهل الجنة : افيضوا عليهم من الماء ، فينبتون نبات الحِبَّة في حميل السيل) أخرجه مسلم[2] . وقوله صلى

١ ــ م : « خلدوا في النار جميعا »
٢ ــ مسلم (الايمان/٣٠٦) وابن ماجه (الزهد/٣٧) والدارمي (الرقاق/٩٦) والمسند (٣/١١)

الله عليه وآله وسلم : (يخرج قوم من النار بشفاعة محمد صلى الله عليه واله وسلم فيدخلون الجنة يسمون : الجهنميين) أخرجه البخاري .

قوله : « اللهم يا ولي الاسلام مسّكنا بالاسلام حتى نلقاك به » .

إنما طلب الثبات على الاسلام الى الموت لأن السعادة الأبدية ، وهي الخلود في الجنان في جوار الرحمن مع أنواع الروح والريحان ، وإنما تحصل بالثبات على الاسلام الى أن يلقى الله بعد الموت ، لأن الاعتبار بالخواتيم ، والأنبياء عليهم السلام مع عصمتهم طلبوا الثبات على الاسلام والموت عليه .

قال الله تعالى اخبارا عن يوسف عليه السلام : ﴿تَوَفَّني مُسلِماً وألحِقْني بالصَّالحِين﴾ [يوسف/١٠١] ، فغيرهم أولى والاقتداء بهم حسن ، ولأن المؤمن بين الخوف والرجاء الى أن يموت على ملة الاسلام ، فوجب الاهتمام بطلب الثبات عليها الى الموت .

قوله : « ونرى الصلاة خلف كل بر وفاجر من أهل القبلة وعلى من مات منهم » .

أما جواز الصلاة خلفهم فلقوله عليه السلام : (صلوا خلف كل بر وفاجر)[١] . ولأن ترك رؤية الصلاة خلف الفاجر يوهم التكفير بالكبائر ، وقد قام الدليل على بطلانه . ولأن الصحابة كانوا يصلون خلف الظلمة من

---

١ ــ بهذا اللفظ للدارقطني ، انظر : كشف الخفاء .

بني أمية[1] ، ولأن العصمة ليست بشرط لصحة الامامة كما هو مذهب الرافضة .

وأما الصلاة على من مات منهم فثابت بفعل النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، حيث صلى على ماعز مع أنه رجمه بعد ما زنى ، ولأن الصلاة لحق الاسلام وهو مسلم لم يخرج عن الاسلام بفجوره .

وقوله : « ولا ننزل أحدا منهم جنة ولا نارا » . أي لا نقول لأحد : إنه من أهل الجنة وإن عمل الصالحات ، أو من أهل النار وإن عمل

---

١ ــ المسألة من مسائل الفروع ، والخلاف فيها للحنابلة فلا تقام عندهم الصلاة خلف الفاسق لأنه لا يؤمن تركه لشيء من القراءة أو شيء من شرائط الصلاة ولحديث « لا يؤمن فاجر مؤمنا إلا أن يقهره بسلطانه أو سيفه » وانظر المغني ١٨٨/٢

وعند الجمهور تصح كما ذكره الشارح إلا أن ابن أبي العز الأذرعي بيّن ما ينبغي حيال ذلك حيث قال في ص (١٤٣) من شرح الطحاوية :

من أظهر بدعة وفجورا لا يرتب إماما للمسلمين ، فإنه يستحق التعزير حتى يتوب ، فإن أمكن هجره حتى يتوب كان حسنا ، وإذا كان بعض الناس إذا ترك الصلاة خلفه وصلى خلف غيره أثر ذلك في انكار المنكر حتى يتوب أو يعزل أو ينتهي الناس عن مثل ذنبه فمثل هذا إذا ترك الصلاة خلفه كان في ذلك مصلحة شرعية ، ولم تفت المأموم جمعة ولا جماعة . وأما إذا كان ترك الصلاة خلفه يفوت المأموم الجمعة والجماعة ، فهنا لا يترك الصلاة خلفه إلا مبتدع « مخالف » للصحابة رضي الله عنهم . وكذلك إذا كان الامام قد رتبه ولاة الأمور ، ليس في ترك صلاة خلفه مصلحة شرعية ، فهنا لا يترك الصلاة خلفه ، بل الصلاة خلفه أفضل ، فإذا أمكن الانسان أن لا يقدم مظهرا للمنكر في الامامة ؛ وجب عليه ذلك ، لكن إذا ولاه غيره ، ولم يمكنه صرفه عن الامامة ، أو كان لا يتمكن من صرفه عن الامامة إلا بشر أعظم ضررا من ضرر ما أظهر من المنكر ، فلا يجوز دفع الفساد القليل بالفساد الكثير ، ولا دفع أخف الضررين بحصول أعظمهما ، فإن الشرائع جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها ، وتعطيل المفاسد وتقليلها ، بحسب الامكان . فتفويت الجمع والجماعات أعظم فسادا من الاقتداء فيهما بالامام الفاجر ، لا سيما إذا كان التخلف عنها لا يدفع فجورا ، فيبقى تعطيل المصلحة الشرعية بدون دفع تلك المفسدة .

وأما إذا أمكن فعل الجمعة والجماعة خلف البر ، فهذا أولى من فعلها خلف الفاجر . وحينئذ ، فإذا صلى خلف الفاجر من غير عذر ، فهو موضع اجتهاد العلماء ومنهم من قال : لا يعيد . وموضع بسط ذلك في كتب الفروع . (المراجع) .

السيئات ، لأن الخاتمة غيب لا يعلمها إلا الله تعالى ، فجاز أن يموت الطالح صالحا ويختم له بالخير ، والصالح طالحا ويختم له بالشر . وقد قال عليّ رضي الله عنه : لا تنزلوا العارفين المخبتين الجنة ، ولا المسيئين النار حتى يكون الله تعالى هو الذي ينزلهم .

قوله : « ولا نشهد عليهم بكفر ، ولا بشرك ، ولا بنفاق ، مالم يظهر منهم شيء من ذلك » .

اذ نحن نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر فلا يجوز لنا الشهادة إلا بما تعلم . قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : (اذا علمت مثل الشمس فاشهد) . ولأن الشهادة بدون ظهور شيء من ذلك يكون بالظن . وقد قال الله تعالى : ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات/١٢] .

وقوله : « ونذر » أي نترك « سرائرهم الى الله تعالى » .

لأنه هو المطلع عليها دون العباد ، يعلم السر وأخفى . قال الله تعالى :

﴿قُلْ إِنْ تُخْفُوا ما فِي صُدُورِكُم أَو تُبْدوه يَعْلَمْهُ اللَّه﴾ [آل عمران/٢٩] ، وإليه أشار النبي عليه السلام بقوله : (نحن نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر) وحديث (هلا شققت قلبه) معروف .

قوله : « ولا نرى السيفَ على أحد من أمة محمد عليه الصلاة والسلام » .

لقوله صلى الله عليه وآله وسلم : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فاذا قالوها عصموا مني دمائهم وأموالهم إلا بحقها) مثل الردة والقصاص والبغي .

[القول في منع الخروج على أئمة المسلمين]

قوله : « ولا نرى الخروج على ائمتنا وولاة امورنا وإن جاروا » اي ظلموا « ولا ندعو عليهم ولا ننزع يدا من طاعتهم ،ونرى طاعتهم من طاعة الله تعالى فريضة » .وذلك لأن العصمة ليست بشرط في الامام فهو وان ظلم لا يخرج عن الامامة ، فالخروج عليه بغي وفساد في الارض واثارة فتنة بين اهل الاسلام كما هو مذهب الخوارج [1] . وقد قال الله تعالى﴿أَطِيعُوا اللَّـــه وأَطِيعُـــوا الـــرَّسُول وَأُولِـــي الْأَمْـــر مِنْكُـــم﴾ [النساء /٥٩] . مطلقا فيتناول وجوب طاعة الامام العادل وغيره ، فتكون طاعتهم ثابتة بالكتاب مثل طاعة الله وطاعة رسوله فتكون فريضة . وانما يجب علينا طاعتهم فيما اذا دعوا الى طاعة أو الى ما فيه مصلحة دينية أو دنيوية . وليس فيه معصية لقوله صلى الله عليه وسلم : (لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق) [2] .

قوله : « وندعو لهم بالصلاح والمعافاة » .

لأن في ذلك رجاء الاجابة ، وفيها عموم الصلاح للامام والرعية وتسكين الفساد والفتنة . والدعاء بالمعافاة شامل لمصالح الاديان والابدان ، اذ في

---

١ ــ الخوارج خرجوا على علي رضي الله عنه وهو الامام الحق . أما الخروج على أئمة الجور فالخلاف فيه ثابت بين أهل السنة فذهب الماوردي وغيره إلى أن الفسق يمنع من انعقاد الامامة ومن دوامها . وعند الحنفية : يستحق العزل بفسقه ان لم يستلزم عزله فتنة . وعند الجمهور : لا ينعزل (وانظر المسامرة بشرح المسايرة لابن الهمام ص ٣٢٣ . وابن عابدين ١ / ٣٦٨ والأحكام السلطانية للماوردي ص ١٧ . والموسوعة الفقهية ٦ / ٢٢٠) (المراجع) .

٢ ــ البخاري (الآحاد/١) ومسلم (الامارة/٣٩) وأبو داود (الجهاد/١٠) والنسائي (البيعة/٣٤) والمسند (١ / ٩٤ ، ٤٠٩)

٣ ــ : والضمير عائد الى « المعافاة » .

صلاح ابدانهم نفع عام ، لأنهم بذلك يقدرون على الجهاد وقطع مادة الظلم والكفر والفساد ، وكذا في صلاح دينهم صلاح عام لأنهم اذا صلحوا حملوا الرعية على ذلك ، اذ الناس على دين مليكهم .

قوله : « ونتبع السنة والجماعة »

لأن «السنة » هي الطريقة المسلوكة في الدين ، وهي مفضية إلى السعادات ، والفوز بالدرجات ، والنجاة من العقوبات . و« الجماعة » هم الصحابة والذين اتبعوهم باحسان ، واتباعهم هدى ، بأيهم اقتديتم اهتديتم . وخلافهم بدعة وضلال ، والنبي عليه السلام قد حرض على اتباع السنة والجماعة بقوله : « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء من بعدي من فارق الجماعة شبرا فقد خلع ربقه الاسلام من عنقه »[1] .

قوله : « ونجتنب الشذوذ والخلاف والفرقة » .

لقوله : عليه السلام : (من شذ شذ في النار) . وقد حث النبي عليه السلام على ملازمة اتباع الجماعة ونهى عن اتباع محدثات الأمور ومفارقة الجماعة . روى عن بعض الصحابة أن النبي صلى الله عليه وسلم ذات يوم أقبل الينا بوجهه فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب ، فقال الرجل : يا رسول الله كأن هذه موعظة مودع فماذا تعهد الينا ؟ قال : (أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وان عبدا حبشيا ، فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافا كثيرا ، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي ، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ ، واياكم ومحدثات الأمور ، فان كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة أخرجه أبو داود

---

١ ــ أبو داود (السنة/٦) والترمذي (العلم/١٦) وابن ماجه (المقدمة/٦) والدارمي (المقدمة/٦) والسند (٤/١٢٦ ، ١٢٧)

والترمذي .[1]

قوله : « ونحب أهل العدل والامانة ، ونبغض أهل الجور والخيانة »

أراد بـ « أهل العدل والامانة » أهل الحق من أهل السنة والجماعة المتمسكين بالعدل واداء ما يجب عليهم من الامانة من الولاة والسلاطين .

وأراد بـ « أهل الخيانة » أهل الخلاف . « والجور » : البغي والفساد والخيانة فيما يجب عليهم من الحقوق الجائرين من الولاة . والمراد بحبهم وبغضهم حب أفعالهم وبغض أفعالهم ، لا ذواتهم . وقد أمر الله تعالى بالعدل فيكون محبوبا ، ونهى عن البغي والجور فيكون مبغوضا . قال الله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ والإِحسانِ وإِيتَاءِ ذِي القُربى ، وَيَنْهى عَنِ الفَحْشاءِ والمُنْكَرِ والبَغْيِ يَعِظُكُم لَعَلَّكُم تَذكَّرونَ﴾ [النحل /٩٠] .

قوله : « ونقول : (الله أعلم) فيما اشتبه علينا علمه » .

انما ذكر هذا لئلا يقع في الشك فيما ذكرنا من العقائد عندما يشتبه عليه شيء ، أو يعتريه سؤال ولا يمكن دفعه ، فحينئذ يجب عليه أن يفوض أمر ذلك وعلمه إلى الله فانه هو العالم بحقائق الأشياء ، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ، ولا يمكن للبشر معرفة كنه دقائق الأشياء وحقائقها الا بتعليم والهام وتوفيق من الله ، فان الملائكة مع صفاء جواهرهم اعترفوا بالعجز عن العلم من ذواتهم ، حيث قالوا : ﴿لا عِلْمَ لَنا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ [البقرة /٣٢] فكيف البشر مع شواغلهم عن التوجه إلى جناب القدس ؟ وقد قال تعالى : ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِنَ العِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾

---

١ ـ الترمذي (شفى ٧٠)

[الاسراء /٨٥] . ﴿وَلا يُحيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلمِهِ إلّا بِما شَاءَ﴾ [البقرة /٢٥٥] . فان عقول البشر قاصرة عن ادراك كثير من الاشياء ، فاذا اشتبه عليه شيء يجب أن يفوض علم ذلك الى الله ويقول : « الله أعلم » لقوله : ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّه إِنَّ اللَّه بَصِيرٌ بالعِبادِ﴾ [غافر /٤٤] .

[القول في المسح على الخفين]

قوله : « ونرى المسح على الخفين في السفر والحضر ، كما جاء في الأثر »

انما ذكر هذا ردا لقول أهل الرفض فانهم انكروا جواز المسح على الخفين ، وهذا وان كان من أحكام الفقه لكنه لما اشتهرت فيها الآثار ألحقه بالعقائد ، دفعا لانكار المنكرين . قال أبو الحسن الكرخي[1] : اني لأخشى الكفر على من لا يرى المسح على الخفين .

١ ــ الكرخي ، عبد الله بن حسين بن دلال الكرخي الحنفي (أبو الحسن) مات سنة ٣٤٠ هـ . (معجم المؤلفين ، ٦ : ٤٥) .

[القول في الحج والجهاد]

قوله : « والحج والجهاد فرضان ماضيان »

انما خصهما بالذكر لأنهما عبادتان في غاية المشقة ، لا يحصلان الا ببذل المال المحبوب للنفس ، وخوف تلف الروح وهجر الأهل والأوطان ومفارقة الأحباب والاخوان . والنفوس متنفرة عن الشدائد النفسانية خصوصاً إذا كان معها صرف المال المحبوب ، فخصهما بالذكر تحريضا عليهما ، وتأكيدا لهما كيلا يتركا ، وقد ذكر الله تعالى أنواعا من التأكيد والتشديد في ايجاب الحج حيث قال : ﴿وَلِلَّه عَلَى النَّاسِ حِجُّ البَيْتِ﴾ [آل عمران /٩٧] ، يعني أنه حق واجب في الرقاب لا بد من أدائه ثم قال : « ومن كفر » مكان « ومن لم يحج » تغليظا على تارك الحج .

وكذا مثل هذا التغليظ جاء في الحديث وهو قوله عليه السلام : « من ملك زادا وراحلة تبلغه الى بيت الله الحرام ولم يحج فلا عليه أن يموت يهوديا أو نصرانيا » . أخرجه الترمذي[1] ثم قال تعالى : ﴿فَإِنَّ اللَّه غَنِيٌّ عَنِ العَالَمِينَ﴾ [آل عمران /٩٧] مكان « غني عنه » ليدل على الاستغناء عنه بالبرهان ، فانه اذا استغنى عن العالمين كان مستغنيا عنه لا محالة فانه داخل فيه ، ولأنه يدل على الاستغناء الكامل ، فكان أدل على كمال السخط على

---

١ ــ الترمذي (الحج/٣)

ترك الحج .

وأما التأكيد على الجهاد فأكثر من أن يحصى ، ومشقته على النفوس لا تخفى .

فاحتاج الى التأكيد فيه وقد قال النبي عليه السلام : (الجهاد ماض الى يوم القيامة حتى يقاتل آخر أمتي الدجال)[1] . وإنما جمعهما أيضا لما روت عائشة قالت : قلت يا رسول الله نرى الجهاد أفضل ، أفلا نجاهد ؟

فقال : (أفضل الجهاد حج مبرور) . أخرجه البخاري .[2] .

قوله : « مع أولي الأمر من المسلمين برهم وفاجرهم الى قيام الساعة لا يبطلهما شيء » .

انما قال : « مع اولي الأمر » لأن الحج والجهاد متعلقان بالسفر واجتماع العساكر والقوافل ، ولا بد فيه من ضابط يضبط أمور الناس عند اختلافهم ويقاوم العدو ويحسم مادة السراق . فلو لم يكن فيهم أمير يقع الخلل في أكثر الأمور ، فيحتاجون الى من يرجعون اليه في الأمور ويطيعونه ويكون نافذ الأمر فيهم ، وهو السلطان أو نوابه من الأمراء ، سواء كان برا أو فاجرا . لأن العصمة ليست بشرط في الأمير . فاذا كان فيه نفع عام وانتظار مصلحة الرعية يصلح للامامة وان كان فاجرا . فان فجوره لا يضر الا نفسه .

---

١ ــ أبو داود (جهاد/٣٥)
٢ ــ البخاري (حج/٤ ، الجهاد/١)

[القول في الايمان بالكرام الكاتبين]

قوله : « ونؤمن بالكرام الكاتبين ، فإن الله جعلهم علينا حافظين »
قال الله تعالى : ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُم لَحافِظِين ، كِراماً كاتِبين ، يَعلَمُونَ ما تَفْعَلون﴾ [الانفطار / ١٠ــ١٢] ، وقال تعالى : ﴿مَا يَلفِظُ مِن قَوْلٍ إِلّا لَدَيْه رَقِيبٌ عَتِيد﴾ [ق /١٨] والحكمة في ذلك مع أن الله تعالى عالم بما يفعله العباد ، ترغيبهم في الخيرات وتحذيرهم عن ارتكاب السيئات . اذ جميع ما يكتبه الحفظة من خير وشر فانهم يقرؤونه عليه يوم القيامة . قال الله تعالى :

﴿يومَ تَجدُ كُل نَفسٍ ما عَمِلَت مِنْ خَيْر مُحضَراً ومَا عَمِلَت مِن سُوء تَوَدُّ لَو أَنَّ بَينَها وبَينَه أَمَداً بَعيدا﴾ [آل عمران / ٣٠] ، فاذا علم العبد أن عليه رقيبا وشاهدا يحفظ عليه أفعاله كان أشد رغبة في فعل الخيرات وأكثر احترازا عن المحظورات .

قوله : « ونؤمن بملك الموت الموكل بقبض أرواح العالمين »
قال الله تعالى : ﴿قُل يَتَوَفَّاكُم مَلِك المَوت الذّي وُكّلَ بِكُم﴾ [السجدة / ١١] .

[القول في عذاب القبر ونعيمه]

قوله : « ونؤمن بعذاب القبر ونعيمه لمن كان لذلك أهلا ، وبسؤال منكر ونكير للميت في قبره عن ربه ودينه ونبيه على ما جاءت به الأخبار عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وعن أصحابه رضي الله تعالى عنهم أجمعين . والقبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار .

كل ما ورد به السمع ولا يأباه العقل يجب قبوله والايمان به .

ونؤمن بعذاب القبر لمن هو أهل له كالفجار ، وبنعيمه لمن كان أهلا للنعيم كالأبرار .

ونؤمن بسؤال منكر ونكير لأنه قد وردت به الأخبار بنقل الأخيار . منها ما روي أنه كان عثمان بن عفان رضي الله عنه اذا وقف على القبر يبكي حتى تبتل لحيته فقيل له : تذكر الجنة والنار فلا تبكي ، وتذكر القبر فتبكي ! فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (القبر أول منزل من منازل الآخرة ، فان نجا منه فما بعده أيسر منه ، وان لم ينج منه فما بعده أشد منه) . أخرجه الترمذي[1] وعن ابن عمر انه قال : قال

---

١ ــ الترمذي (زهد/٥)

النبي عليه السلام : « اذا مات احدكم عرض عليه مقعده بالغداة والعشي ، ان كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وان كان من أهل النار فمن أهل النار فيقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة » . أخرجه البخاري ومسلم[1] .

ومصداقه قوله تعالى : ﴿النَّار يُعرَضُون عَلَيهَا غُدُوًّا وَعَشِيًا﴾ [غافر/٤٦] . وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : « بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم في حائط لبني النجار ونحن معه اذ حادت به بغلته فكادت تلقيه واذا أقبر ستة أو خمسة فقال صلى الله عليه وسلم : (من يعرف أصحاب هذه القبور ؟) فقال رجل : أنا ، قال : (متى ماتوا ؟) قال: في الشرك . فقال : (ان هذه الامة تبتلى في قبورها ، فلولا الا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم عذاب القبر الذي اسمع منه) ثم قال : (نعوذ بالله من عذاب القبر) » . أخرجه مسلم[2] .

وأما في سؤال منكر ونكير فقد روى أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم : (إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه يسمع قرع نعالهم أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان له : ما كنت تقول في هذا الرجل (يعني محمدا عليه السلام) أما المؤمن فيقول : أشهد انه عبدالله ورسوله فيقال له انظر الى مقعدك من النار بدلك الله به مقعدا من الجنة فيراهما جميعا ويفتح له من قبره باب اليها . وأما الكافر أو المنافق فيقول : لا أدري ، كنت أقول كما يقول الناس فيه ، فيقال : لا دريت ثم يضرب بمطرقة من حديد ضربة

---

١ ـــ البخاري (الجنائز/٩٠) ومسلم (الجنة/٦٥ ، ٦٦) والنسائي (الجنائز/١١٦) وابن ماجه (الزهد/٣٢) والمسند (٢/ ١٥١ ، ١١٣ ، ١٢٣)

٢ ـــ مسلم (الجنة/٦٧) والمسند (١/ ٤٥٣ ، ٥/ ١٩٠)

فيصيح صيحة فيسمعها من يليه الا الثقلان) . أخرجه البخاري ومسلم[1]
والأصح أن الأنبياء عليهم السلام لا يُسألون في قبورهم .

---

١ ـ البخاري (الجنائز/٧٨) ومسلم (الجنة/٧٠) والنسائي (الجنائز/١٠٨ ، ١١٠) والمسند (٣/١٢٦)

[القول في البعث وجزاء الأعمال]

قوله : « ونؤمن بالبعث ، وجزاء الأعمال يوم القيامة ، والعرض ، والحساب ، وقراءة الكتاب ، والثواب والعقاب ، والصراط ، والميزان »

والمراد بالبعث حشر الأجساد وإحياؤها يوم القيامة للجزاء بما فعل في الدنيا من خير أو شر ، وهو حق لأنه ممكن في نفسه ، وقد أخبر الصادق بوقوعه فوجب الايمان به . أما أنه ممكن فلأن الابتداء لما كان ممكنا فالحشر الذي هو عبارة عن الاعادة أولى بالامكان . والله تعالى قادر على جميع الممكنات عالم بجميع الكليات والجزئيات ، فيقدر على جمع أجزائه بعد تفرقها وخلق الحياة فيه ، واليه الاشارة في قوله تعالى : ﴿وَهُوَ الذي يَبدَؤ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُه وَهُو أهوَنُ عَلَيه﴾ [الروم /٢٧] ، وفي قوله : ﴿قُلْ يُحْيِيها الَّذي أنشأَهَا أوَّلَ مَرَّة﴾ إلى قوله : ﴿أوَلَيْسَ الذي خَلَقَ السَّماوَات والأرْض بِقادِرٍ على أن يَخْلُقَ مِثلَهُم بَلى وَهُوَ الخَلَّاقُ العَليم﴾ [يس /٧٩ــ٨١] . أما أنه أخبر بوقوعه بقوله تعالى : ﴿ونُفِخَ في الصُّورِ فإذا هُم مِن الأَجداثِ إلى رَبِّهِم يَنسِلون﴾ [يس/٥١] وقال تعالى : ﴿وَنُفِخَ في الصُّورِ فَصعِقَ مَن في السَّماوَات وَمَن في الأَرض إلَّا مَن شَاء اللّه ثُم نُفِخَ فِيه أُخرى فإذا هُم قِيَام يَنظُرون﴾ [الزمر /٦٨] . والآيات والأخبار فيه أكثر من أن تُحصى ، وهو معلوم بأنه من ضروريات الدين فوجب الايمان به .

أما الجزاء فثابت بقوله تعالى : ﴿إنَّما تُجْزَوْنَ مَا كُنتمْ تَعمَلُون﴾ [التحريم/٧] ، وقوله : ﴿جَزَاْءً بِمَا كَانُوا يَعمَلُون﴾ [السجدة/١٧] .

والآيات فيه أيضا أكثر من أن تحصى .

وأما العرض على الله فثابت بقوله تعالى : ﴿وَعُرِضُوا عَلى رَبِّكَ صفا ، لَقَد جِئتُمُونا كَما خَلَقنَاكُم أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الكهف/٤٨] ، وقوله : ﴿يَومَئِذٍ تُعْرَضُون لا تخفى مِنكُم خَافِيَة﴾ [الحاقة/١٨]

وأما الحساب فثابت بقوله تعالى : ﴿وَإِنْ كَانَ مِثقَالَ حَبَّةٍ مِن خَردَل أتينَا بِها وَكَفى بِنا حاسِبِين﴾ [الأنبياء/٤٧] .

وأما قراءة الكتب فثابتة بقوله تعالى : ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَومَ القِيامَة كِتَاباً يَلقَاهُ مَنشُورا اقرَأْ كِتابَكَ كَفَى بِنفْسِكَ اليَومَ عَلَيكَ حَسِيبا﴾ [الإسراء/١٣ـــ١٤] . ويعطى كتاب المؤمن بيمينه وكتاب الكافر بشماله أو من وراء ظهره . قال الله تعالى : ﴿فَأَمَّا مَن أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِه فَسَوفَ يُحاسَبُ حِسابا يَسِيرا وَيَنْقَلِبُ إلى أهلِهِ مَسرُورا ، وَأَما مَن أُوتِيَ كِتَابه وَرَاءَ ظَهرِهِ فَسَوفَ يَدعُو ثُبُورا وَيَصلى سَعِيراً﴾ [الانشقاق/٩ـــ١١] .

وأما الصراط فهو جسم ممدود على متن جهنم أحد من السيف ، وأدق من الشعر ، يمر عليها الخلائق ، منهم كالبرق الخاطف ، ومنهم كالريح ، ومنهم كالجواد المسرع ، ومنهم كالماشي ، ومنهم كالنملة تدب ، على قدر تفاوت الدرجات وأعمالهم في الدنيا . وثبتت حقيقته بقوله تعالى ﴿ثُمَّ نُنجِّي الذِّين اتَّقوا وَنَذرُ الظَّالِمِين فِيها جِثِياً﴾ [مريم/٧٢] . وبما روى أن عائشة رضى الله عنها قالت : فذكرت النار فبكيت فقال عليه السلام :

« ما يبكيك » قلت ذكرت النار فبكيت فهل تذكرون أهليكم يوم القيامة ؟ فقال : (أما في ثلاث مواطن فلا يذكر أحد أحدا : عند الميزان حتى يعلم أيخف ميزانه أم يثقل ، وعند تطاير الصحف حتى يعلم اين يقع كتابه في يمينه أم في شماله أم وراء ظهره ، وعند الصراط اذا ضرب بين ظهراني جهنم حتى يجوزه) . أخرجه أبو داود .

وأما الميزان فهو عبارة عما يعرف به مقادير الأعمال فتوزن أعمالهم خيرا كان أو شرا . ونتوقف في كيفيته . والأصل فيه قوله تعالى : ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف/٨] . ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [الأنبياء/٤٧] . ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ [القارعة/٦] .

[القول في أن الجنة والنار مخلوقتان]

قوله : « والجنة والنار مخلوقتان ، لا يفنيان أبدا ولا يبيدان »

وكذا أهلهما لقوله تعالى : « خالدين فيها أبدا » ، وقد صرح بخلود الفريقين ، والأبدية تنافي الفناء والزوال . وقد ورد في الحديث : « أهل الجنة لا يموتون ولا يهرمون ولا تبلى ثيابهم ولا يفنى شبابهم » .

قوله : « وأن الله تعالى خلق الجنة النار قبل الخلق »

قوله : قال الله تعالى : ﴿وَلَقَد رَآه نَزلَة أُخرى عِندَ سِدرَة المُنتَهى عِندَها جَنَّةُ المَأوى﴾ [النجم/١٣ــ١٥] وقال تعالى : ﴿يَا آدم اسكُن أنتَ وَزَوجُكَ الجَنَّة﴾ [البقرة /٣٥] وفيه رد لقول المعتزلة القائلين بأنهما ليستا بمخلوقين الآن وإنما تخلقان بعد القيامة .

قوله : « وخلق لهما أهلا ، فمن شاء منهم للجنة فضلا منه ، ومن شاء للنار عدلا منه » .

لما روي عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : توفى صبي فقلت : طوبى

---

١ ــ مسلم (الجنة/٢١) والترمذي (الجنة/٢ ، ٨) والدارمي (الرقاق/١٠٠)

له عصفور من عصافير الجنة ، فقال صلى الله عليه وسلم : (أولا تدرين أن الله خلق الجنة وخلق النار ، فخلق لهذه أهلا ، ولهذه أهلا ، وقال:هؤلاء للجنة ولا أبالي وهؤلاء للنار ولا أبالي)[1] ثم دخول الجنة بفضل الله لا بالعمل ، قال الله تعالى : ﴿وَسَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [الحديد/٢١] . وقال النبي عليه السلام : « لا يدخل أحد الجنة إلا برحمة الله ، قيل : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته »[2] وفيه رد لقول المعتزلة القائلين بالوجوب على الله .

ودخول النار بعدله لأنه كلفهم بالايمان عن اختيار ، وأخبرهم بالعذاب بترك الايمان والأوامر وارتكاب المناهي ، ومن أنذر فقد أعذر فكان التعذيب عدلا منه وحكمة .

قوله : ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ [الإسراء/٨٤] وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « جف القلم بما هو كائن الى يوم القيامة ، وكل ميسر لما خلق له »[3] . وقد مر أن الخير والشر بارادة الله ومشيئته وقضائه وقدره فهما مقدران على العباد . قال الله تعالى : ﴿وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الانسان /٣٠] . وإليه أشار النبي عليه السلام حيث قال : « والقدر خيره وشره من الله » وحديث جبريل مشهور وقد مر أيضا فلا حاجة الى الاعادة .

---

١ ـ مسلم (القدر ٣٠ ، ٣١) والنسائي (جنائز ٥٨) وابن ماجه (المقدمة/١٠) والمسند (٤١/٢ ، ٢٠٨)
٢ ـ البخاري (الرقاق/١٨) وابن ماجه (الزهد ٢٠) ومسلم (المنافقون/٧١)
٣ ـ الترمذي (الايمان/١٨) وابن ماجه (المقدمة/١٠) والنسائي (النكاح/٤) والمسند : ١٩٧/٢ ، البخاري (القدر/٣٢٨) ومسلم (القدر ، ٧)

[القول في الاستطاعة]

قوله : « والاستطاعة التي يجب بها الفعل من نحو التوفيق الذي لا يجوز أن يوصف به المخلوق مع الفعل ، وأما الاستطاعة من جهة الصحة والتوسع والتمكين وصحة الآلات وهي قبل الفعل وهو كما قال الله تعالى : ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وِسعَهَا﴾ [البقرة/٢٨٦] .

اعلم بأن الاستطاعة على قسمين : باطنة وظاهرة : أما الباطنة فهي التي يوجد بها الفعل يحدثها الله تعالى مقرونة بالفعل ، ففي الطاعات تسمى « توفيقا » وفي المعاصي « خذلانا » ولا يوصف به المخلوق . لأنها من الله ، فهذه الاستطاعة مع الفعل كحركة الاصبع مع حركة الخاتم ليكون العبد دائما مفتقرا الى توفيق الله ومشيئته وتأييده ﴿وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الانسان/٣٠] . ولا استقلال للعبد في ايجاد الفعل ، وهو في كل لمحة ولحظة محتاج الى الله ، وهي حقيقة العبودية والافتقار . قال الله تعالى :

﴿أَنْتُم الفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾ [فاطر/١٥] وفيه رد لقول المعتزلة حيث قالوا : ان هذه القدرة سابقة على الفعل مقدورة للعبد .

وأما الاستطاعة الظاهرة فهي القدرة من جهة الوسع والتمكن وصحة الآلات والجوارح وسلامة الاعضاء ، وهي مقدمة على الفعل . ومدار

التكليف على هذه ، لأن الخطاب بالتكاليف منوطٌ بها ، إذ الأولى باطنة ولا يقف العبد عليها ، فمن كان قادرا على العبادات من الصلاة والصوم والحج تجب عليه بناء على القدرة الظاهرة وان لم يوجد منه شيء منها بناء على احداث الله الاستطاعة التي بها يوجد الفعل . وفي قوله تعالى : ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّه نَفْسا إِلَّا وُسْعَها﴾ [البقرة/٢٨٦] دليل على أن التكليف لا يكون الا على ما في الوسع بناء على الاستطاعة الظاهرة .

وفيه رد لقول الأشاعرة حيث جوزوا التكليف بما لا يطاق .

[القول في أفعال العباد]

قوله : « وأفعال العباد بخلق الله تعالى وكسب من العباد »

وفيه رد لقول المعتزلة والجبرية : فان المعتزلة قالوا : أفعال العباد بخلقهم لا بخلق الله . والجبرية قالوا : أفعالهم بخلق الله لا كسب للعباد فيه ولا اختيار . والمذهبان على طرفي نقيض في الغلو والتقصير . والطريق المستقيم والمنهج القويم ما قاله أهل السنة . وهو أن الافعال بخلق الله وكسب العباد .

أما الدليل على أن الافعال بخلق الله فقوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعمَلُونَ﴾ [الصافات /٩٦] ولأن جميع الممكنات واقع بخلقه ، وفعل العبد من جملة الممكنات .

وأما الدليل على أنه بكسبهم فقوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ بِما قَدَّمَت يَدَاكَ﴾ [الحج /١١] وقوله تعالى : ﴿فَبِمَا كَسَبَت أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى /٣٠] وقوله :

﴿وَمَن يَكسِبْ إِثْماً فَإِنَّما يَكسِبُه عَلى نَفسِهِ﴾ [النساء /١١١] . ﴿وَمَن يَكسِب خَطِيئَةً أو إِثْماً﴾ [النساء /١١٢] ، وقوله ﴿وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَت قُلُوبكم﴾ [البقرة /٢٢٥] . ففيما قاله الفريقان ترك لأحد الدليلين ، وفيما قلنا جمع بينهما فكان أولى .

[القول في التكليف]

قوله : « وفي دعاء الأحياء وصدقاتهم منفعة للأموات »

أما في الدعاء فلقوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ جَاؤوا مِن بَعدِهِم يَقُولُونَ رَبَّنا اغْفِر لَنا وَلاخوانِنا الذينَ سبَقونا بِالايمَانِ﴾ [الحشر /١٠] . ومدحهم بذلك ، فلو لم يكن للدعاء والاستغفار نفع للاموات ما استحقوا المدح ، لأن الصلاة واجبة على الميت وليس فيها الا الثناء والدعاء اللهم اغفر لحينا وميتنا . فلولا أن الدعاء نافع لما وجبت (الصلاة على الميت) لعدم الفائدة .

واما في الصدقة فلقوله عليه الصلاة والسلام : (تصدقوا عن موتاكم) .

ولو لم تكن تنفع الصدقة لما أمر بها .

لأنه تعالى أمر بالدعاء ووعد الاستجابة ، قال الله تعالى : ﴿ادْعُوني أسْتَجِب لَكُم﴾ [غافر /٦٠] وقال تعالى : ﴿أُجِيبُ دَعوَةَ الدَّاعِ إذا دَعَانِ﴾ [البقرة /١٨٦]

قوله : « ويقضي الحاجات »
لأنه موصوف بكمال الرحمة قادر على كل شيء ولا يلحقه مشقة في

قضائها وفيه نفع للمحتاجين . فالظاهر أنه يقضيها وهو قاضي الحاجات ومجيب الدعوات .

وإنما قال ذلك دفعا لما قاله بعض المعتزلة أن الدعاء ليس له تأثير .

قوله : « ويملك كل شيء »

قال الله تعالى : ﴿لَهُ مُلْكُ السَّموٰاتِ والأرضِ﴾ [الحديد /٢]

قوله : « ولا يملكه شيء »

لأن المالك لا يصير مملوكا .

قوله : « ولا غنى عنه طرفة عين »

لأن كل شيء سواه ممكن ، والممكن في وجوده وبقائه محتاج الى الواجب ، فلا يكون غنيا . فالافتقار والحاجة اليه لازمة لكل شيء . قال الله تعالى : ﴿يَا أَيُّها النَّاسُ أَنتُم الفُقَراءُ إِلى اللَّهِ﴾ [فاطر /١٥] فهو قيوم لكل شيء ، اذ قيام الاشياء بإقامته فلولا عنايته بالاشياء لتلاشت واضمحلت جميعها .

قوله : « ومن استغنى عن الله طرفة عين فقد كفر »

لأن الافتقار صفة لازمة للعبد ، والغنى صفة للرب . فاذا ظن العبد أنه مستغن عن الرب صار جاهلا بربه وبنفسه ، مشاركا له في صفة الغنى فيكون كافرا « وصار من أهل الحين » أي أهل الهلاك ، فان الكافر مخلد في العذاب الشديد ، وأي هلاك أشد من هذا ؟!

[القول في غضب الله ورضاه]

قوله : « والله تعالى يغضب ويرضى لا كأحد من الورى »

وذلك لأن الله وصف نفسه بالغضب والرضا ، حيث قال : ﴿وَغَضِبَ اللَّه عَلَيْهِم﴾ [الفتح /٦] وقال : ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنهُم وَرَضُوا عَنه﴾ [المائدة /١١٩] . فثبت أنه يوصف بالرضا والغضب ، لكنه لا يراد بغضبه ورضاه مثل غضب الخلق ورضاهم . لأن الغضب في الخلق عبارة عن حالة يتغير بها الوجه فيحمر ، وتنتفخ به الأوداج . والرضا عبارة عن نضارة في الوجه وسرور في النفس ، والله تعالى منزه عن التغير وتبدل الأحوال .

فنقول بأن المراد من « غضب الله » هو ارادة الانتقام من العصاة وانزال العقوبة بهم وأن يفعل بهم كما يفعل الملك اذا غضب على من تحت يده . نعوذ بالله من غضبه . والمراد من « رضا الله » هو ارادة الثواب لمن اطاعه والعفو عمن عصاه ، وان يفعل بعبيده كما يفعل الملك بمن تحت يده اذا رضي من الاكرام وزيادة الانعام . نسأل الله رضاه ورحمته .(١)

---

(١) هذا من الشارح رحمه الله تأويل لكلام المؤلف واخراج له عن ظاهره، فإنه أثبت الرضا والغضب صفتين ثابتتين لله تعالى ، مع التنزيه بقوله: «لا كأحد من الورى» والرضا غير ارادة الخير والغضب غير ارادة الانتقام. وقد بين ذلك ابن أبي العز في شرحه للطحاوية (ص٥٢٥) فقال: لا يقال ان الرضى ارادة الاحسان ولا ان الغضب ارادة الانتقام فإن هذا نفي للصفة، لأن الله تعالى قد يحب الشيء ولا يريده، وقد يكره الشيء ويريده.

قال : ويقال لمن تأول الغضب والرضا : قلت ذلك فلابد أن يقول: ان الغضب غليان دم القلب، والرضا الميل والشهوة وذلك لا يليق بالله تعالى . فيقال له : غليان دم القلب في الآدمي أمر ينشأ عن الغضب وليس هو الغضب.

قال : ويقال له أيضا : الارادة فيه : هي ميل الحي الى الشيء وما يناسبه ويلائمه لما له فيه من المنفعة. فيلزمك في المعنى الذي صرفت إليه اللفظ مثل ما التزمته في المعنى الذي صرفت عنه اللفظ. فإن جاز هذا جاز ذاك. وإن امتنع هذا امتنع ذاك . اهـ وهذا واضح عند التدبر (المراجع).

[القول في حب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم]

قوله : « ونحب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا نفرط في حب أحد منهم ، ولا نتبرأ من أحد منهم ، ونبغض من يبغضهم وبغير الحق يذكرهم ، ولا نذكرهم الا بخير ، وحبهم دين وايمان واحسان ، وبغضهم كفر ونفاق وطغيان » .

أما محبتهم فلأن الله تعالى رضي عليهم ورضوا عنه ، وأثنى عليهم في التوارة والانجيل والفرقان حيث قال : ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾ إلى قوله : ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ . وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ ...﴾ [الفتح /٢٩] وهم بذلوا مجهودهم في اظهار الدين واعلاء كلمة الحق وهاجروا من أوطانهم محبة الرسول وآووه ونصروه وقاتلوا بين يديه ، فوجبت محبتهم . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : (اللهَ اللهَ في أصحابي ، لا تتخذوهم غرضا بعدي ، فمن أحبهم فبحبي أحبهم ، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم ، ومن آذاهم فكأنما آذاني ، ومن آذاني فكأنما آذى الله ، ومن آذى الله كان النار به أولى) [١]

وأما أنه لا نفرط في حب أحد منهم ، لأن الافراط في الشيء يوجب

---

١ ــ الترمذي (المناقب) والمسند (١٨٧/٤ و ٥٥/٥ ، ٥٧) .

الفساد والبغض لغيره ، ألا ترى أن الرافضة أفرطوا في حب علي رضي الله عنه فوقعوا في بعض أبي بكر الصديق وعمر وعثمان رضي الله عنهم ، ونعوذ بالله من ذلك ، وادعوا في علي الالهية والنبوة كما هو اعتقاد الغلاة من الرافضة . وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام لعلي رضي الله عنه : (يهلك فيك اثنان : مبغض مفرط ، ومحب مفرط) [1] . وقد كان كما قال عليه السلام ، فان الخوارج هلكوا بإفراط بغضه كهلاك الرافضة بافراط محبته .

وأما التبري منهم فزيغ وضلال ، لأنهم على المنهج القويم والدين المستقيم . والاهتداء منوط بالاقتداء بهم حيث قال عليه السلام : (اصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم)[2] . ففي التبري منهم عدم الاهتداء وهو الضلال .

ونبغض من يبغضهم لأن بغضهم انما ينشأ من بغض دينهم الذي ارتضاه الله حيث قال : ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِيناً﴾ [المائدة /٣] . وذلك دليل خبث الاعتقاد ونتيجة النفاق والفساد ، فيجب بغض من يبغضهم وبغير الخير يذكرهم .

ولا نخوض فيما شجر بينهم ونحمل حالهم على الاجتهاد ولا نذكرهم الا بخير لأنهم اصول هذا الدين فالطعن فيهم طعن في الدين .

وحبهم دين وإيمان واحسان وبغضهم كفر ونفاق وطغيان وهذا كله ظاهر من ضروريات الشرع .

---

١ ــ الحديث بالمعنى ، رواه النسائي (الايمان ٣٣ ، ٣٧) .

٢ ــ انظر عمدة القاري ٢١٠/٢٠٢ .

[القول في الخلافة]

قوله : وتثبت الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر الصديق تفضيلا له وتقديما على جميع الأمة ، ثم لعمر بن الخطاب ، ثم لعثمان بن عفان ، ثم لعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم . وهم الخلفاء الراشدون والأئمة المهديون » .

الامام الحق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر الصديق . وخالف الشيعة جمهور المسلمين وزعموا أن الامام الحق بعد الرسول صلى الله عليه وسلم عليٌّ رضى الله عنه .

وحجة جمهور المسلمين أن الصحابة من المهاجرين والانصار اجمعوا على امامة ابي بكر رضي الله عنه ، وهو من أقوى الحجج في اثبات الامامة وسند ذلك الاجماع قوله عليه السلام : (مروا أبا بكر فليصل بالناس)[1] ، استخلفه في حياته في الصلاة التي هي أعظم أركان الدين ، فيبقى بعد موته خليفته في الصلاة وفي غير الصلاة بطريق الأولى ، ولهذا قال عمر رضي الله عنه : رضيك رسول الله لديننا أفلا نرضاك لدنيانا ؟ ولأنه أفضل الناس بعد الانبياء ، لقوله عليه السلام : (والله ما طلعت الشمس ولا غربت على أحد بعد النبيين أفضل من أبي بكر)[2] .

---

١ ــ حديث « مروا أبكر فليصل بالناس » رواه البخاري (كتاب الاذان/٣٩ ، ٤٦ ، ٤٧) ومسلم (الصلاة ٩٠ : ٩٤ ، ٩٨) .

٢ ــ انظر في كنز العمال ٢/٥٥٧ .

واذا ثبتت خلافة أبي بكر رضي الله عنه بالاجماع وقد أوصى بالخلافة لعمر رضي الله عنه واتفقت الصحابة على بيعته ثبتت خلافة عمر رضي الله عنه بعده . واليه أشار النبي عليه السلام : (اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر رضي الله عنه)[1] .

ثم عمر رضي الله عنه لم يستخلف أحدا عند وفاته ، وترك الأمر شورى بين ستة من الصحابة ، كلهم مشهود لهم بالجنة : عثمان ، وعلي ، عبدالرحمن بن عوف ، وطلحة ، والزبير ، وسعد بن أبي وقاص . فبايع عبدالرحمن بن عوف عثمان بن عفان ورضي به الباقون من أهل الشورى وغيرهم من الصحابة فثبتت خلافته باجماع الصحابة .

ثم استشهد عثمان ولم يستخلف أحدا فاتفق من بقي من أهل الشورى وغيرهم على خلافة علي رضي الله عنه فانعقدت خلافته بمبايعتهم .

وقد انتهت الخلافة بعد علي رضي الله عنه لقوله عليه السلام : (الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثم يصير ملكا وجبروتا ثم يصير عز بز)[2]. مأخوذ من بز يقال من عز بز أي من غلب سلب . والنبي صلى الله عليه وسلم عرف بالوحي وهو معجزة باهرة ــ أن الخلافة تنتهي الى ثلاثين سنة . وهكذا كانت ، فان مدة خلافة ابي بكر رضي الله عنه كانت سنتين ، ومدة خلافة عمر رضي الله عنه كانت عشر سنين ، ومدة خلافة عثمان كانت اثنتي عشرة سنة ، ومدة خلافة علي رضي الله عنه كانت ست سنين ، والمجموع ثلاثون سنة وهم الخلفاء الراشدون والأئمة المهديون الذين ساروا سيرة

---

١ ــ حديث « اقتدوا باللذين من بعدي ...» رواه الترمذي في سننه (كتاب المناقب ١٦ ، ٣٧) .

٢ ــ حديث « الخلافة بعدي ثلاثون ... » رواه الترمذي في سننه (كتاب الفتن ٤٨) وأبو داود (كتاب السنة ٩) ومسند ٥ ، ٢٢٠ .

الرسول عليه السلام ولم يعدلوا عن طريقته في شيء وهم الذين اشار النبي عليه السلام اليهم بقوله : « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي تمسكوا بها »[1] .

قوله : « وان العشرة الذين سماهم رسول الله وبشرهم بالجنة ، تشهد لهم بالجنة على ما شهد لهم رسول الله ، وقوله الحق ، وهم أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، وطلحة ، والزبير ، وسعد ، وسعيد ، وعبدالرحمن بن عوف ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وهم أمناء هذه الأمة رضوان الله عليهم أجمعين » .

ومعناه ظاهر .

قوله : « ومن أحسن القول في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأزواجه وذرياته فقد برئ من النفاق »

وذلك لأن الصحابة قد أثنى عليهم سبحانه وتعالى في مواضع كثيرة ، منها قوله تعالى : ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ﴾ [التوبة /١٠٠] ، وقوله : ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ [التحريم /٨] ، وقوله : ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ ، رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ، تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً﴾ [الفتح /٢٩] . فيجب تعظيمهم ، فمن أحسن القول فيهم فقد برئ من النفاق .

وكذلك أزواج النبي عليه السلام هن أمهات المؤمنين ، ومعهن بركة

---

(١) ــ حديث « عليكم بسنتي ... » تقدم ذكره .

صحبة خاتم النبيين .

وكذلك ذرياته عترته الطاهرة ، قد أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا فمحبتهم آية الايمان ، والبراءة منهم أمارة النفاق ، وإساءة القول فيهم انما يكون لخبث الباطن وسوء الاعتقاد .

[القول في علماء السلف]

قوله : « وعلماء السلف من الصالحين والتابعين ومن بعدهم من أهل الخير والأثر وأهل الفقه والنظر ، لا يذكرون الا بالجميل ، ومن ذكرهم بسوء فهو على غير السبيل » .

لأن تعظيم هؤلاء من تعظيم الدين ، لأنهم ورثة الأنبياء ونقلة الشريعة ، فوجب اتباعهم والثناء عليهم وكف اللسان عن الطعن فيهم . فمن ذكرهم بالسوء وطعن فيهم فقد طعن في الدين وعدل عن سنن المرسلين ، وذلك علامة النفاق والشقاق .

[القول في تفضيل الأنبياء على الأولياء]

قوله : « ولا نفضل أحدا من الأولياء على أحد من الأنبياء ، ونقول : نبي واحد أفضل من جميع الأولياء ، ونؤمن بما جاء من كراماتهم ، وصح عن الثقات من رواياتهم » .

لا يبلغ ولي قط درجة النبي ، لأن الولي تابع للنبي ، والتابع درجته دون درجة المتبوع ، ولأن كل نبي ولي ، وليس كل ولي نبيا ، ففي النبي اجتمعت النبوة والولاية ، فيكون أفضل من الولي . وفيه رد لما يزعمه بعض جهال الصوفية من ترجيح الولاية على النبوة . ولأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « والله ما طلعت الشمس ولا غربت على أحد بعد النبيين أفضل من أبي بكر »[1] . وهذا الحديث يقتضي أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه أفضل من جميع الأولياء الذين ليسوا بأنبياء . فاذا كان الصديق أفضل من الأولياء فالانبياء أولى .

ونؤمن بما جاء في كرامة الأولياء، لأنه قد ورد في القرآن قصة عرش بلقيس وقول ذلك الوليّ، وهو آصف بن برخيا، وهو رجل من أصحاب سليمان عليه السلام لم يكن نبياً على ما حكى الله تعالى بقوله : ﴿قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفُك، فلما رآه

١ ــ حديث « والله ما طلعت الشمس ... » تقدم ذكره .

مستقراً عنده قال هذا من فضل ربي﴾ وقصةُ مريم وما ظهر لها من الخوارق من رزق الشتاء في الصيف، ورزق الصيف في الشتاء، وظهورِ النخلة في الصحراء، وتساقطِ الرطب عنها[1]: من أعظم الكرامات لمريم على ما حكى الله تعالى بقوله: ﴿كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا﴾الآية [آل عمران/٣٧] وبقوله: ﴿وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا﴾ [مريم/ ٢٥]. والآثار والأخبار في كرامات الأخيار مستفيضة.

وكل كرامة تظهر على يد ولي فهي معجزة لنبي، لأنه إنما أكرم الله الولي بتلك الكرامات ببركة متابعة النبي، فكُل ما يظهر يده يكون دليلاً على صدق النبي، فلا تكون الكرامة قط قادحة في المعجزة، بل هي مؤيدة لها، دالة عليها، خلافاً لما زعمت المعتزلة من حيث أنه لا يبقى فرق بين الولي والنبي لو جوزنا ظهور المعجزة على يد الولي. قلنا: المعجزة تقارن دعوى النبوة، ولو ادعى الولي النبوة لكفر من ساعته. ولأن الولي يجوز أن يعلم أنه ولي ولا يجوز ألا يعلم، بخلاف النبي ويجوز إظهار الكرامة للولي، ترغيباً للمسترشد لا إعجاباً وفخراً.

---

١ ــ أي عن النخلة. وفي هـ «عيب» أي على مريم.

[القول في اشراط الساعة]

قوله : « ونؤمن بخروج الدجال ونزول عيسى بن مريم من السماء ، ونؤمن بطلوع الشمس من مغربها ، وخروج دابة الأرض من موضعها » .

لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أخبر بهذه الأشياء ، وهو صادق ، فيجب الايمان بما أخبر به . والأحاديث فيها مستفيضة .

[القول في الكاهن والعراف]

قوله : « ولا نصدق كاهنا ، ولا عرافا ، ولا من يدعي شيئا بخلاف الكتاب والسنة واجماع الأمة » .

أما تكذيب الكاهن والعراف فلأن الاطلاع على الغيب مما استأثر الله به نفسه ، لا يطلع عليه أحد إلا من ارتضاه الله تعالى من أنبيائه بالوحي اليهم على ما قال الله تعالى : ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً . إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَسُولٍ﴾ [الجن/٢٦ــ٢٧] . والكاهن والعراف ليسا من الأنبياء فلا نصدقهما . وقد صح عن النبي عليه السلام : (من أتى عرافا أو كاهنا فصدقه فقد كفر بما أنزل على محمد)[1] . وكذا لا نصدق من يدعي شيئا مخالفا لكتاب الله وسنة رسوله واجماع الأمة . لأن هذه الأدلة هي أصول الشرع ، فمن اعتقد شيئا على خلاف ما في أدلة الشرع يكون بدعة ، وكل بدعة ضلالة .

---

١ ــ المسند ٢/٤٢٩ .

[القول في لزوم الجماعة]

قوله : « ونرى الجماعة حقا وصوابا ، والفرقة زيغا وعذابا » .

أراد بـ « الجماعة » ما كان عليه الصحابة والتابعون وأهل الحل والعقد في كل عصر ، لأنه عبارة عن الاجماع ، وقد قال النبي عليه السلام : (لا تجتمع أمتي على الضلالة)[1] و (ما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن)[2] . وأراد بـ « بالفرقة » مخالفة الاجماع وما اتفق عليه أهل الحل والعقد ، فان مخالفة الاجماع زيغ ، أي ميل عن الطريق المستقيم وعذاب ، لأنه يوصله الى العذاب الأليم . وقد نهى الله عن ذلك حيث قال : ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ [آل عمران/١٠٥] . وقد ثبت في الأخبار عن النبي المختار : (من فارق الجماعة قدر شبر فقد خلع ربقة الاسلام من عنقه)[3] ، (يد الله على الجماعة ، فمن شذ شذ في النار) .

---

١ ـ الحديث تقدم ذكره .

٢ ـ الحديث تقدم ذكره أيضا .

٣ ـ الحديث تقدم ذكره كذلك .

[القول في دين الله]

قوله : « ودين الله في السماء والأرض واحد ، وهو دين الاسلام » ، كما قال الله تعالى : ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّه الإِسلَامُ﴾ [آل عمران/١٩] ، وقال تعالى : ﴿وَرَضِيْتُ لَكُم الإِسْلَامَ دِيناً﴾ [المائدة/٣] .

وذلك لأن أهل السماء والأرض من الملائكة والجن والانس كلهم مكلَّفون بالتوحيد والايمان بالله بأسمائه وصفاته ، وتصديق ما جاء به الأنبياء ، وبالمبدأ والمعاد وذلك واحد لا يختلف فيه أحد من المكلفين ، ولا يقبل غير دين الاسلام من أحد ، كما قال الله تعالى : ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِيناً فَلَن يُقبَلَ مِنه﴾ [آل عمران/٨٥] . فدل على أن أصل الدين — وهو الاسلام — واحد كما قال الله تعالى : ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلَامُ﴾ [آل عمران/١٩] ، و ﴿رَضِيتُ لَكُمُ الإِسلَامَ دِيناً﴾ [المائدة/٣] والخطاب به لجميع المكلفين من أهل السماء والأرض فلا يختلفون في أصل الدين .

قوله : « وهو » أي دين الله « بين الغلو والتقصير » .

أي متوسط بينهما لأن الميل الى أحد الطرفين خروج عن الصراط المستقيم . والغلو هو مجاوزة الحد . والتقصير هو النزول عن الحد . وكل منهما مذموم ، لأن العبد ليس له التجاوز عما حد له مولاه ولا التقصير عما

أمره به وكذلك دين الله .

(قوله) : « بين التشبيه والتعطيل » .

وهو أن تثبت لله تعالى نعوت الجلال وصفات الكمال ، على ما نطق به الكتاب العزيز والآثار المروية عن النبي عليه السلام ، من غير تشبيه كما هو مذهب المشبهة المجسمة ، حيث شبهوا الخالق بالخلق : وهو ليس كمثله شيء ، ولا تعطيل كما هو مذهب المعتزلة ، حتى نفوا عن الله تعالى جميع الصفات حقيقة فعطلوه عنها .

وكذلك الدين : « بين الجبر والقدر » .

وهو طريقة أهل الحق حيث قالوا : أفعال العباد من الخير والشر بخلق الله تعالى وكسبهم ، لا كما هو مذهب الجبرية حيث قالوا : لا صنع للعباد في أفعالهم بل هم مجبرون على ذلك ، ولا كما هو مذهب القدرية حيث قالوا :

أفعال العباد بخلقهم لا بصنع الله ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

وكذلك الدين : « بين الأمن واليأس » .

أي بين الخوف والرجاء ، اذ في الأمن عن العقاب ظن العجز عنه ، ومخالفة النصوص الناطقة بالوعيد والعذاب الشديد للفجار والأشرار كما هو مذهب المرجئة حيث قالوا : لا يضر ذنب مع الايمان ، ولا يدخل أحد من المؤمنين النار .

وكذا في اليأس عن رحمة الله ظن العجز عن العفو ، ومخالفة النصوص الناطقة بالوعد والشفاعة والعفو للمؤمنين ، كما هو مذهب الخوارج والمعتزلة

حيث قالوا : لا ينفع الايمان بدون الأعمال ، فلو مات صاحب الكبيرة بلا توبة يخلد في النار .

وكلا المذهبين مخالف للكتاب والسنة : أما الأمن فقال الله تعالى :

﴿فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا القَوْمِ الخَاسِرون﴾ [الأعراف/٩٩] وأما اليأس فقال الله تعالى : ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَوْحِ اللَّه إِلا القَومِ الكافِرون﴾ [يوسف/٨٧] والسنن فيه كثيرة .

قوله : « فهذا » .

أي جميع ما ذكرنا من أول الكتاب الى هاهنا .

« ديننا واعتقادنا ظاهرا وباطنا » .

لأنه قد شهدت على صحة ما ذكرنا الأدلة المنقولة والبراهين المعقولة فيجب أن نعتقده ظاهرا وباطنا ، لأن المخالفة بين الظاهر والباطن من أوصاف المنافقين وهم في الدرك الأسفل من النار .

قوله : « ونحن بُرَآء الى الله من كل من خالف الذي ذكرناه وبيناه ونسأل الله تعالى أن يثبتنا على الايمان ويختم لنا به ويعصمنا من الأهواء المختلفة والآراء المتفرقة والمذاهب الردية مثل المشبهة والجهمية والقدرية والجبرية وغيرهم من الذين خالفوا الجماعة وحالفوا الضلالة ، ونحن بُرَآء منهم ، وهم عندنا ضلال وأردياء » .

انما قال : « نحن بُرَآء الى الله من كل من خالف الذي ذكرناه » ، لأن

ما ذكره من أصول الذي من أول الكتاب إلى آخره هو مذهب أهل السنة والجماعة من الصحابة والتابعين ثابت بالمنقول والمعقول وهو الطريق الذي كان عليه النبي عليه السلام وأصحابه فيكون المخالف على مذهب أهل الهوى . والبدعة فوجب التبري عنه .

وانما سأل الثبات على دين الاسلام ، لأنه من أهم أمور الدين والدنيا وهو دأب الأنبياء والأولياء . والاعتبار بحسن الخاتمة فلا جرم طلب الختم على الايمان نينال الفوز والنجاة والدرجات .

وإنما طلب العصمة من الأهواء المختلفة لأن أهل الأهواء خالفوا الأدلة الظاهرة والبراهين الباهرة الشرعية والعقلية ، وتعلقوا بأوهام وشبهات لا تصلح دليلا بهوى أنفسهم وميلهم الى الباطل ، فوجب التبري مما يوجب عداوة الحق ، ألا ترى الى قول ابن عمر حين قال له السائل : إن عندنا أقواما لا يثبتون القدر . فقال : أبلغوهم أني بريء منهم .

ثم فسر المذاهب الردية والآراء المتفرقة بقوله : مثل المشبهة والجهمية والقدرية والجبرية وغيرهم ، كأنواع الشيعة والكرامية والخوارج والمرجئة وأمثالهم .

إنما بدأ بالمشبهة لأن عقيدتهم أفسد العقائد ، لاجتماعها على تجسيم الصانع القدير وتشبيههم إياه بالبشر . قال الامام فخر الدين رحمه الله :

المجسم قط ما عبد الله ، لأنه يعبد ما تصوره في وهمه من الصورة ، والله منزه عن ذلك .

ثم [ثنّى] بالجهمية لخبث عقائدهم المشتملة على تعطيل الصانع عزّ اسمه ، ونفيهم بقاء الجنة وأهلها ، وبقاء النار وأهلها ، وكونهم فيهما

خالدين .

ثم بالقدرية لنفيهم عن الله صفات الذات والأفعال حقيقة .

ثم قال : نحن بُرَآء منهم وهم عندنا ضلال وارداء لخلافهم الحجج الظاهرة والآيات الباهرة والأخبار المتواترة .

وليكن هذا آخر الكتاب .

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين .

والله الموفق للصواب ، وإليه المرجع والمآب .[1]

---

١ ــ عبارة « والله الموفق .... والمآب » في س فقط . وبعدها عبارة تبيّن تاريخ هذه النسخة المخطوطة نصها « قد وقع الفراغ من هذه النسخة الشريفة واللطيفة ثالث عشر ربيع الثاني من شهور سنة تسع وتسعين وألف من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام الى يوم القيامه » .